سورة الأعراف

بين يدي سورة الأعراف

تسميتها

تسمى هذه السورة سورة الأعراف، لورود قصة الرجال الذين يكونون على الأعراف يوم القيامة، والأعراف جمع عرف وهو: المكان المرتفع المشرف، أو السور المضروب بين الجنة والنار.

كما تسمى طولى الطوليين، قال السمعاني: «وقد روي أن النبي قرأ في المغرب بطولى الطوليين يعني سورة الأعراف، وإنما سُميت بذلك لأن أطول السور التي نزلت بمكة سورة الأنعام وسورة الأعراف، والأعراف أطولهما».

وروى البخاري بسنده عن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: "ما لَكَ تقرأ في المغرب بقصار وقد سمعت النبي ﷺ يقرأ بطولى الطوليين؟"[1]

وقد بينت رواية النسائي أن المقصود بطولى الطوليين: سورة الأعراف، فروى بسنده عن أبي الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يحدث عن زيد بن ثابت أنه قال لمروان: «أبا عبد الملك أتقرأ في المغرب بقل هو الله أحد وإنا أعطيناك الكوثر؟ قال: نعم. قال: فمحلوفة لقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين؛ ألمص». [2] وذكر الفيروزأبادي في بصائر ذوي التمييز أن هذه السورة تسمى (سورة الميقات) لاشتمالها على ذكر ميقات موسى في قوله: «ولما جاء موسى لميقاتنا». وأنها تسمى (سورة الميثاق) لاشتمالها على حديث الميثاق في قوله: «ألستُ بربكم قالوا بلى».

---

(١) صحيح البخاري١/ ٢٦٥، رقم الحديث: ٧٣٠.

(٢) سنن النسائي الكبرى ١/ ٣٣٩، رقم الحديث: ١٠٦١.

عدد آياتها

عدد آيات سورة الأعراف مئتان وست آيات في العدد الكوفي والحجازي، ومئتان وخمس آيات عند بقية علماء العدد، وقد وقع اختلاف علماء العدد في خمسة مواضع هي:

﴿ الٓمٓصٓ ﴾[١] عدها الكوفيون.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[٢٩] عدها الكوفيون.

﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [٢٩] عدها البصريون والشاميون.

﴿ ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [٣٨] عدها الحجازيون.

﴿ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [١٣٧] عدها الحجازيون.[١]

المرحلة التي نزلت فيها

نزلت سورة الأعراف بعد نزول سورة (ص)[٢]

أسباب نزولها

سيأتي ذكر أسباب النزول في مواضعها من الآيات.

المناسبة بينها وبين سورة الأنعام

إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة. وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة.. ولكن سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها؛ وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها؛ وتواجه الجاهلية

(١) انظر: التلخيص في القراءات الثمان، أبو معشر الطبري(عبد الكريم بن عبد الصمد ت٤٧٨هـ) ص٢٦٥، ط١ سنة ١٤١٢هـ =١٩٩٢م، تحقيق: محمد حسن عقيل موسى. [الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم – جدة].

(٢) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي ت٥٣٨هـ) ٢/ ٨٢، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

العربيـة في حينهـا - وكل جاهليـة أخرى كذلـك - مواجهة صاحب الحق الـذي يصدع بالحق وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة، أما سورة الأعراف - وهـي تعالج موضوع العقيدة كذلك - فإنها تأخذ طريقاً آخر، وتعرض موضوعها في مجال آخر هو مجال التاريخ البشري، ورحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقـت منهـا.. وفي هذا المدى المتطاول تعرض «موكب الإيمان» «مـن لدن آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسـلام، تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجـه بهـا البشرية جيلاً بعـد جيل، وقبيلاً بعد قبيل.. ويرسـم سـياقُ السـورة في تتابعه: كيف اسـتقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهـدى؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكبُ أرصادها ومضى في طريقه إلى الله؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة..»[1].

المناسبة بين مطلع سورة الأعراف وخاتمة سورة الأنعام:

جـاء في ختام سـورة الأنعام الحديـث عن الصراط المسـتقيم الذي يمثـل الدين الخالص والمنهج الصافي الذي لا يُقبل عند الله سواه؛ إنه ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. وجاء في أول سـورة الأعراف الأمر باتباع الدين الحق، والتحذير من الشرك واتخاذ الأولياء من دون الله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ .. ﴾.

وفي أواخـر سـورة الأنعـام جاء الحديـث عن المعاد والمصـير إلى الله تعـالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾، وفي أول سـورة الأعـراف بيـان لمـا يتم في ذلك اليوم من سـؤال للعبـاد، وإنبائهم بما كان منهـم، ووزن لأعمالهـم: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ .. ﴾.

وفي أواخر سـورة الأنعام بيان أن الله سبحانه استخلف الناس في هذه الأرض، وجعلهم

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٢٤٤، ط١١ دار الشروق، سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

أمما تتلاحق ويخلف بعضها بعضاً: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾، وفي أوائل سورة الأعراف حديث عن الأرض وخلق آدم وتصويره وإسكانه - هو وزوجه - الجنة، ثم الهبوط إلى الأرض للعيش فيها.

المناسبة بين افتتاحيتها وخاتمتها

افتتحت السورة الكريمة ببيان إنزال هذا القرآن إلى الرسول ﷺ، ودعوته إلى الإنذار به وتبليغه وتذكير المؤمنين به ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ واختتمت السورة بالدعوة إلى الاستماع لهذا القرآن والإنصات لتلاوته، والأمر بذكر الله، والتحذير من الغفلة ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

محور سورة الأعراف والمناسبة بينه وبين مقاطع السورة

المحور الذي تدور حوله سورة الأعراف هو عقيدة التوحيد عبر رحلة البشرية منذ وجودها الأول ومسيرها الطويل، إلى نهاية عودتها ورجوعها إلى الدار الآخرة، فقد خلق الله تعالى آدم وزوجه وأسكنهما الجنة، وحذرهما من عدوهما الشيطان، ومن كيده ووسوسته، ثم بين كيف وسوس لهما الشيطان حتى أخرجهما من الجنة، فأُهبطا إلى الأرض، وبدأت رحلة البشرية على الأرض التي خلقت وهيئت لحياة البشر ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ ﴾.

تاب الله سبحانه على آدم وزوجه، وأهبطهما إلى الأرض، وخاطب بني آدم محذراً إياهم من الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة، ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، وبيَّن لبني آدم أنه سيرسل لهم رسلاً يقصون عليهم آيات الله وينذرونهم، ودعاهم إلى الاستجابة لنداء الإيمان إذا أرادوا أن يعودوا إلى الجنة التي أُخرج أبواهم منها.

ثم ينتقل السياق إلى قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، مبتدئاً بقصة

نوح مع قومه، ونصحه لهم، وردهم عليه، ثم بيان عاقبة كفرهم وتكذيبهم، ثم قصة هود وصالح ولوط وشعيب، ثم يعقب السياق على هذه القصص قبل أن ينتقل إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون وقومه، ودعوته لهم وتكذيبهم ورفضهم للآيات ونقضهم للعهد والميثاق، ثم عاقبة كفرهم واستكبارهم، بالغرق والهلاك، أما جزاؤهم في الآخرة فأشد وأعظم، وفي المقابل نجاة موسى ومن معه واستخلافهم في الأرض، للابتلاء ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ويقف السياق طويلاً مع قصة موسى وهو يُعلِّم قومه ويربيهم ويغرس في نفوسهم عقيدة الإيمان، ويحذرهم من الشرك: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وحين يأتي موسى لميقات ربه يخرج بنو إسرائيل عن الطاعة والإيمان، ويعبدون العجل ويعود إليهم موسى مغضباً.. ويعقب السياق على القصة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

ويستمر السياق في عرض قصة موسى مع قومه، وما جرى لهم في التيه، وإكرام الله لهم بتظليل الغمام وانبجاس العيون من الحجر وإنزال المن والسلوى، ويبين موقف بني إسرائيل وجحودهم وتبديلهم القول، ويستعرض عند هذا الموقف قصة الذين اعتدوا في السبت وعاقبتهم.

ويأتي إلى ذكر الميثاق الذي أُخذ على بني إسرائيل، فيتخذ منه مناسبة للتذكير بميثاق الإيمان وعهد الفطرة الذي أخذه الله على بني آدم، وقصة الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها

فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. وهي نموذج واضح لنقض الميثاق والانسلاخ من العهد، واتباع العدو الخبيث الذي ما فتئ يكيد ويخادع ليضل الناس ويغويهم.

ثم تقترب الرحلة من نهايتها فيعرض السياق تساؤل الكفار المنكرين عن الساعة ووقت قيامها، وتفويض أمر ذلك إلى الله سبحانه، وأن النبي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، ثم يعرض السياق صورةً من جحود الكفار وتبديلهم النعمة كفراً، في مشهد يجدر أن يملأوه شكراً وعرفاناً هو مشهد الحمل والولادة: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وتأتي التعقيبات الختامية لإبطال اتخاذ الشركاء، وبيان أنهم لا يخلقون شيئاً ولا يستطيعون نصراً لأنفسهم فضلاً عن أن ينصروا أولياءهم، ثم الدعوة إلى التمسك بولاية الله سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ثم بيان ضعف كيد الشيطان، وأنه قاصر على الوسوسة التي يطردها ذكرُ الله، ويزيل آثارها التذكر والانتباه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠-٢٠١].

وفي ختام السورة دعوة للاستماع إلى هذا الكتاب والإنصات إليه، وذكر الله تعالى وحضور القلب معه، وبيان أن المسلم حين يكون في ذكر الله والإنابة إليه يكون في انسجام مع هذا الكون كله، ومع العباد الأطهار من الملائكة الكرام الذين ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

مقاصد سورة الأعراف

أهم المقاصد التي أبرزتها هذه السورة:

النهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله. وإنذار المشركين سوء عاقبة الشرك في الدنيا

والآخـرة. ووصـف ما حل بالمشركين والذين كذبوا الرسـل من سـوء العـذاب في الدنيا، وما سـيحل بهم في الآخرة. وتذكير الناس بنعمة خلق الأرض، وتمكين النوع الإنسـاني من خيرات الأرض، وبنعمة الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله. وما نشـأ من عداوة جنس الشـيطان لنوع الإنسـان. وتحذير الناس من التلبس ببقايا مكر الشـيطان من تسـويله لهم حرمان أنفسهم من الطيبات، ومن الوقوع فيما يرديهم في عذاب الآخرة. ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين وكراماته للمتقين. والتذكير بالبعث وتقريب دليله. والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسـان. والتذكير ببديع ما أوجده الله لصلاحها وإحيائها. والتذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رسل الله إلى التقوى والإيمان.

وقد أفاضت السـورة في أحوال الرسـل مع أقوامهم المشركين، وما لاقوه من عنادهم وأذاهـم، وأنـذرت بعـدم الاغترار بإمهـال الله الناس قبـل أن ينزل بهم العـذاب، فإن العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.

وأطالت القول في قصة موسـى عليه السلام مع فرعون، وفي سـلوك بني إسرائيل مع موسـى عليه السلام. وتخلـل قصته بشـارة الله ببعثة محمـد ﷺ وصفة أمته وفضل دينه. ثـم خلصت إلى موعظة المشركين الذين بدلوا الحنيفية وتقلدوا الشرك، وضربت لهم مثلا بمن آتاه الله الآيات فوسوس له الشيطان فانسلخ عن الهدى.

ووصفت حال أهل الضلالة وتكذيبهم بما جاء به الرسـول، ووصفت آلهتهم بما ينافي الإلهية وأن لله الصفات الحسنى؛ صفات الكمال.

ثم بينت أمر الله لرسـوله عليه الصلاة والسـلام والمسـلمين بسـعة الصـدر والمداومة على الدعوة وتحذيرهم من مداخل الشيطان بمراقبة الله بذكره سرا وجهرا والإقبال على عبادته. [1]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مجلد ٥، جزء ٨، ص ٩، دار سحنون – تونس.

موضوع سورة الأعراف

سورة الأعراف سورة مكية موضوعها العقيدة كشأن السور المكية، لكن هذه السورة تتحدث عن العقيدة في تاريخها البعيد الضارب في عمق التاريخ إلى مبدأ الوجود البشري وتسير مع هذا التاريخ عبر رسالات الرسل والأنبياء، ودعوتهم أقوامهم، ورد أقوامهم عليهم، مروراً بنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وانتهاء بموسى عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه، فالسورة (وهي تعالج موضوع العقيدة تعرض موضوعها في مجال التاريخ البشري.. في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها.. وفي هذا المدى المتطاول تعرض «موكب الإيمان «من لدن آدم – عليه السلام – إلى محمد ﷺ، تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيل، وقبيلاً بعد قبيل.. ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد؟ وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله ؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة؟

إنها رحلة طويلة طويلة، ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة، وتقف منها عند معظم المعالم البارزة، في الطريق المرسوم. ملامحه واضحة، ومعالمه قائمة، ومبدؤه معلوم، ونهايته مرسومة.. والبشرية تخطو فيه بجموعها الحاشدة. ثم تقطعه راجعة إلى حيث بدأت رحلتها في الملأ الأعلى)[1].

وحين نستعرض السورة نجد آياتها من مبدئها إلى منتهاها تدور حول هذا الموضوع، وتعالجه، وتشكل كلُّ آية أو مقطع من مقاطع السورة لبنة في بنائه المحكم المتين.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٤٤، ط١١، دار الشروق سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

مهمة القرآن ووجوب اتباعه

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ
أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا
كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا
كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ
خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الأعراف
(١-٩)

التفسير الإجمالي للآيات

ألمص، حروف مقطعة افتتحت بها هذه السورة، وهي من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، ومن الحكم التي تشير إليها: إعلان التحدي للمشركين بأن هذا القرآن المعجز مؤلف من هذه الحروف التي تنطقونها وتؤلفون منها كلامكم، ورغم ذلك فأنتم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله. (١)

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مبينا له عظمة القرآن: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ أي كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية محكما مفصلا ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ أي ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد وأنه أصدق الكلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلينشرح له صدرك ولتطمئن به نفسك ولتصدع بأوامره ونواهيه ولا تخش لائما ومعارضا ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ الخلق وتعظهم وتذكرهم فتقوم الحجة على المعاندين وليكون «ذكرى للمؤمنين» يتذكرون به الصراط المستقيم وأعماله الظاهرة والباطنة

(١) التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي ١/ ١٥٨٢.

وما يحول بين العبد وبين سلوكه. ثم خاطب الله العباد ولفتهم إلى الكتاب فقال: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي الكتاب الذي أنزله لأجلكم وهو ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ الذي يريد أن يُتم تربيته لكم فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه كملت تربيتكم وتمت عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ تتولونهم وتتبعون أهواءهم وتتركون لأجلها الحق ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة لما آثرتم العاجل على الآجل، والعدو على الولي. ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم كيلا يشابهوهم فقال: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا ﴾ أي عذابنا الشديد ﴿ بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ أي في حين غفلتهم، لم يخطر الهلاك على قلوبهم، فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونها، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا رسلهم ﴿ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ عن تبليغهم رسالاتِ ربهم، وعما أجابتهم به أممهم ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم ﴾أي على الخلق كلهم ما عملوا ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ أي والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط الذي لا جور فيه ولا ظلم. ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الناجون من المكروه المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الربح العظيم والسعادة الدائمة، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ وطاشت بما فيها من سيئات ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم ﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم وحصل لهم العذاب الأليم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ فلم يتبعوها ولم يؤمنوا بها.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

دعت هذه الآيات إلى اتباع الكتاب المنزل، وتوحيد الله سبحانه وتعالى، وبينت أن كثيراً من الأمم السابقة جاءهم العذاب وهم غافلون غارّون، بعد أن أنذرهم أنبياؤهم وحذروهم، فلم يسمعوا الإنذار، ولم يستجيبوا لأنبيائهم، ثم بينت الآيات أن عذاب الدنيا الذي أصاب أولئك ليس نهاية المطاف، بل هو مرحلة في الطريق يعقبها الحساب والسؤال عما فعلوا، وسيكون السؤال موجهاً إلى الأمم التي دُعيت، وإلى الأنبياء والرسل الذين حملوا لواء الدعوة، ثم بعد ذلك يفصل الله بينهم، وتوزن الأعمال، ليفوز من ثقلت موازينه، ويخسر من خفَّت موازينه.

ويتضح من هذه الآيات ذلك الاتصال الوثيق بينها وبين موضوع السورة الذي يتناول العقيدة في تاريخها الطويل البعيد، عبر رحلة البشرية منذ كانت على هذه الأرض، وإلى أن تعود إلى الملأ الأعلى ويُفصل بينها، فإما إلى الجنة وإما إلى النار.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - هذا القرآن أنزله الله تعالى إلى رسوله ﷺ لينذر به الناس، وقد جاء هذا الكتاب بمهمة عظيمة هي تغيير أوضاع الجاهلية، وإعادة بناء النفوس والمجتمعات البشرية على الطريقة السوية والنهج الصحيح.

٢ - للقرآن مهمتان لا بد منهما، فالأولى: إنذار الناس وتخويفهم من عذاب الله تعالى وعقابه وهذا موجه إلى جميع الناس وبالأخص إلى الكفار والمعاندين. والثانية: التذكير، وهي موجهة للمؤمنين، والدعوة لا بد أن تسير في اتجاهين متوازيين، فلا بد من دعوة غير المسلمين وإنذارهم وتخويفهم، ولا بد من رعاية من أسلموا وتربيتهم على معاني الإيمان وطاعة الله ورسوله.

٣ - هذا القرآن كما أنزل إلى الرسول لينذر به، فقد أنزل إلى المؤمنين ليعملوا به ويتبعوه، والمؤمن الذي يتبع الوحي والقرآن، ويعمل بما أنزل الله إليه، لا يجوز له أن يتبع شيئاً آخر، فمن

اتبع غير هدى الله فقد كفر، ومن لم يكتف بهدى الله واتبع مع ذلك شيئاً آخر فقد أشرك، وحقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، ولا نتخذ من دونه أولياء.

٤ - أهلك الله تعالى كثيراً من الأمم السابقة، بأن أنزل عليها عذابه، وأذاقها بأسه، حيث جاءهم العذاب ليلاً فلم يصبح منهم أحد، أو وقت القيلولة حيث هم غارُّون غافلون، فلم يُبق منهم أحداً، وكان موقف هؤلاء المكذبين حين رأوا العذاب يعصف بهم ويأخذهم أن سارعوا إلى الاعتراف بكفرهم وظلمهم، في الوقت الذي لا ينفع فيه ندم ولا اعتراف فقد مضى وقت التوبة، وأُغلق بابُها بمجيء العذاب.

٥ - إن العذاب الذي أصاب الأمم المكذبة في الدنيا ليس كلَّ شيء، بل هناك ما هو أشد وأعظم، إنه العذاب الذي سيواجهونه يوم القيامة، حين يجمع الله الأولين والآخرين يجمع الأنبياء وأممهم ويسأل كلاً عما عمل، فيسأل الأمم ويقررهم بذنوبهم على رؤوس الأشهاد، ويسأل الرسل عن تبليغ الدين. وعندئذ ينبئهم الله جميعاً، فما من عمل صغير ولا كبير إلا هو محصىً ومدون في كتاب، فالله سبحانه شاهد على كل عمل، لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه شيء.

٦ - في يوم القيامة توزن أعمال العباد في ميزان الحق والقسطاس المستقيم الذي يزن أدق الأشياء، حتى يأخذ كلٌّ حقه، ويعرف ما له وما عليه، والناس يومئذ صنفان، فمن ثقلت موازينه بالإيمان والأعمال الصالحة، فهو المفلح الفائز، ومن خفت موازينه بالكفر والضلال والفجور والسيئات، فقد خسر نفسه وأهلكها، بسبب ظلمه لنفسه وتكذيبه بآيات الله.

خلق آدم عليه الصلاة والسلام وعداوة الشيطان

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ
ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ
مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ
لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ
﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ
وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ
أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن
لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة الأعراف
(١٠-٢٥)

التفسير الإجمالي للآيات

يخاطب الله سبحانه بني الإنسان منبهاً على نعمه العظيمة التي أنعمها عليهم، ومنها أنه مكن لهم في الأرض فجعلهم قادرين على تسخيرها والاستفادة مما فيها، وجعل لهم فيها من الرزق والخيرات ما يمكنهم من العيش فيها، كما أنه سبحانه خلقهم وصورهم، حيث خلق آدم عليه الصلاة والسلام وصوره ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن يسجدوا له اعترافاً بفضله وعلو درجته. فامتثل الملائكة جميعاً أمر ربهم وسجدوا لآدم، إلا إبليس فإنه رفض السجود، وعلل رفضه بأنه خير من آدم، فهو مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار- في رأيه-

أفضل من الطين. وحين عصى إبليس أمر ربه، وتكبر على آدم غضب الله عليه ولعنه وأبعده من رحمته صاغراً ذليلاً، وعندئذ طلب إبليس من الله تعالى أن يؤخره ويبقيه حياً إلى يوم البعث فوعد الله سبحانه أن يؤخره إلى يوم الوقت المعلوم أي اليوم الذي تنتهي فيه الدنيا ويهلك من عليها، فيهلك إبليس مع من يهلك، ثم يبعث مع من يبعث.

ثم توعد إبليسُ أن يُضل بني آدم، وأن يقعد لهم على الصراط محاولاً منعهم من الاستقامة، وإبعادهم عن الهدى والإيمان، وأن يصرفهم - بشتى الوسائل- عن الحق والخير. فتوعده الله سبحانه أن يعذبه في نار جهنم، وأن يملأها منه ومن الذين اتبعوه وأطاعوه.

ثم نادى الله سبحانه عبده آدم يأمره أن يسكن الجنة هو وزوجه، وأن يتمتعا بما فيها من الطيبات والنعم، لكن الله سبحانه حرم على آدم وزوجِه شجرة من شجر الجنة، أو صنفاً من أصناف الشجر، وحذرهما من الاقتراب من تلك الشجرة أو الأكل منها، مؤكداً لهما أن الأكل منها معصية وظلم، وهنا وجد الشيطان سبيلاً لإغواء آدم وزوجه والكيد لهما، فأخذ يوسوس لهما ويلقي في أنفسهما الخواطر والأفكار حول هذه الشجرة، وما السر في منعهما منها، وما الذي يجري لو أكلا منها؟ وعاش آدم وزوجه في الجنة مدة من الزمان، والشيطان يوسوس لهما ويغريهما بالأكل من الشجرة، مؤكداً لهما أن من أكل منها سيكون ملَكاً من الملائكة، أو سيبقى خالداً أبداً، وأخذ يُقسم لهما بالله تعالى أغلظ الأيمان أنه ناصح لهما، ولا يريد لهما إلا الخير، ووقع آدم وزوجه في خُدعة الشيطان، فتناولا شيئاً من ثمر تلك الجنة، وبمجرد أن ذاقا طعمها انكشفت لهما سوءاتهما، وظهرا عاريين في صورة مُخجلة فعرفا أنهما وقعا في الزلة، وقارفا المعصية. عندئذ سارعا إلى أخذ بعض الورق من أشجار الجنة ليسترا به سوءاتهما. وفي ذلك الوقت ناداهما ربهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين؟

اعترف آدم وزوجه بالخطأ الذي وقعا فيه، فسارعا إلى إعلان التوبة وإظهار الندم، وطلب المغفرة، فغفر الله لهما ورحم ضعفهما، لكنه أخرجهما من الجنة، وأمرهما بالهبوط إلى الأرض ليعيشا فيها ويعمراها، وأمر الشيطان أن يهبط إلى الأرض ليكون فيها أيضاً. وأخبر أن الناس

مـن ذرية آدم، والجن من ذرية إبليس سـتكون العلاقة بينهم علاقـة عداوة وصراع، فمن أطاع الشيطان وكان من حزبه، صار عدواً لمن ثبت على الحق واتبع الهدى.

مناسبة الآيات لما قبلها

ذكرت الآيات السابقة إنزال الكتاب على الرسول ﷺ، وتوجيه الأمر إليه بأن ينذر الناس بهـذا الكتـاب، ودعت المؤمنين إلى اتباع هـذا الكتاب والالتزام بما جاء بـه من الحق، وبينت أن مـن النـاس من يؤمن ويسـتجيب فتثقل موازينه يوم الحسـاب، ومنهم من يكفـر ويعاند ويتبع الشيطان فتخف موازينه ويكون من الخاسرين.

وذكـرت الآيـات هنـا أن الله سـبحانه مكـن للنـاس في الأرض وجعل لهم فيهـا معايش وبينـت كيف أُهبط الإنسـان إلى الأرض، ليعمرهـا ويعيش فيها، بعد ما جـرى لأبويه في الجنة من اسـتجابة لوسوسـة الشـيطان. وبينت أن الناس سيعيشـون في هذه الأرض ويموتون فيها ويخرجون منها، ليعودوا إلى ربهم فيحاسبهم على ما عملوا، ويزن لهم أعمالهم، فمنهم من يفوز وينجو، ومنهم من يخسر ويهلك.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشـكل هذه الآيات حلقة هامة في موضوع السـورة، إذ تبين أن الله سـبحانه هيأ الأرض قبل أن يخلق الإنسان، ثم خلق الإنسان وصوَّره، وأسجد له الملائكة، ودحر عدوَّه الذي رفض السجود، وأسكن آدم وزوجه الجنة، ثم أهبطهما منها بعد أن حصل منهما ما حصل من النسيان والزلـة، أهبطهـما إلى الأرض لعمرانها واسـتئناف الحيـاة فيها، ولتكون الحيـاة في هذه الأرض مرحلة لا بد منها في طريق العودة إلى الآخرة.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - هيأ الله سبحانه الأرض للناس بحيث يتمكنون من العيش فيها، والبناء عليها وحرثها واستصلاحها وزرعها، وسائر وجوه الانتفاع بها، وجعلها مسخرة مذللة لهم، وجعل

فيها ما يعيش به الناس مما يخرج من الأشجار والنبات، وما فيها من الماء والهواء، والمعادن والثروات، وأنواع الصنائع والتجارات.

٢ - خلق الله سبحانه آدمَ ثم صوره، والخلق يعني الإنشاء والإيجاد، والتصوير يعني تشكيل آدم على الصورة التي هو عليها، ثم كانت ذريته على صورته وهيئته، وبعد أن تم خلق آدم وتصويره ونفخ الروح فيه أمر الله سبحانه الملائكة أن يسجدوا له، فسجدوا جميعاً، إلا إبليس فإنه لم يسجد، ولم يستجب لأمر الله سبحانه، وإبليس -وإن كان في زمرة الملائكة- لكنه ليس من الملائكة، فهو مخلوق من النار، والملائكة مخلوقون من النور.

٣ - تكبر إبليس على آدم، ورأى نفسه خيراً منه، ونسي أن السجود لآدم إنما هو امتثال لأمر الله تعالى، ثم فسر هذه الأفضلية بقوله: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ والنار- في نظره- أفضل من الطين. وقد تضمن هذا الرد أموراً منها: أن إبليس رفض أمر الله تعالى، وفضل نفسه على آدم، واحتقر آدم وتكبر عليه.

٤ - عاقب الله – سبحانه – إبليس على عصيانه، بأن أخرجه وطرده من رحمته، وكتب عليه الذلة والصغار، جزاء تكبره ورفضه السجود.

٥ - طلب الشيطان من الله سبحانه أن يؤخر موته إلى يوم يبعثون، أي يوم يبعث الخلق من قبورهم، وهو يريد بذلك أن ينجو من الموت، لأنه لو أُخر إلى يوم البعث لبقي حياً بعد النفخة الأولى واستمر حياً حتى تأتي النفخة الثانية التي يبعث على أثرها الخلق، وقد وعده الله تعالى أن يؤخره، ولكن ليس إلى يوم يبعثون -كما طلب- بل إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم النفخة الأولى حيث يموت مع من يموت من الخلق، ثم يبعث مع من يُبعث.

٦ - أعلن الشيطان عداوته لبني آدم، وتوعَّد أن يصدهم عن الصراط المستقيم، ويمنعهم من سلوكه، وأن يأتيهم من أمامهم ومن خلفهم، وعن اليمين وعن الشمال، بالإغواء والوسوسة، وأن يستخدم جميع الوسائل والأساليب من أجل صرفهم عن سبيل الهدى، وإبعادهم عن طريق الحق والإيمان.

٧ - أمر الله سبحانه آدم أن يتخذ الجنة مسكناً، ومعه زوجه(حواء)، وأذن لهما أن يأكلا من ثمر الجنة حيث شاءا، لكنه حذرهما من شجرة سمّاها لهما، ونهاهما عن الاقتراب منها. ولكن الشيطان وسوس لآدم وزوجه، وزين لهما الأكل من الشجرة، واستمر في وسوسته وتزيينه حتى أوقعهما في الخطيئة، وعندئذ انكشفت منهما العورات، وظهرت السوءات، فشرعا يقطعان الورق ويلصقانه بعوراتهما ليستراها، وبهذا يكون الشيطان أول من دعا إلى التعري وكشف العورات.

٨ - أدرك آدم وزوجه ما وقعا فيه من الزلة والخطيئة، فسارعا إلى الاعتذار والاستغفار، معترفين بها كان منهما: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وهذا فرق أساسي بين الشيطان والإنسان، فالشيطان حين عصى أمر الله تعالى، ورفض السجود، لم يتب ولم يعترف بخطئه، بل عاند واستكبر، أما آدم وزوجه فحين وقعا في الزلة سارعا إلى التوبة والندم.

٩ - غفر الله لآدم وزوجه، وتاب عليهما، لكنه أمرهما بالهبوط إلى الأرض والاستقرار فيها، كما أمر إبليس بالهبوط أيضاً: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ وبذلك تحقق ما قدره الله سبحانه أن تكون الأرض موضع استقرار للناس، يعيشون فيها ويعمرونها، ولهم فيها متاع يتمتعون به في الدنيا من الطعام والشراب والمأوى.. إلى أن يأتيهم أجلهم. ففي الأرض يعيشون، وفيها يموتون، ومنها يُخرجون للبعث والحساب يوم القيامة، وفي هذا إشارة صريحة إلى أن البقاء في هذه الأرض ما هو إلا مرحلة قصيرة، وأن على المسلم أن لا يركن إلى الدنيا، فإنها فانية زائلة.

١٠ - إن الشيطان الذي أعلن عداوته لآدم وذريته منذ بدء الخلق مستمر في الوسوسة من أجل صرف الناس عن سبيل الهدى، وإيقاعهم في الكفر والضلال، فهو عدوّ مبين لا يُخفي عداوته ولا يكتمها، وعلى المسلم أن يحذر منه، ويلجأ إلى الله سبحانه.

تحذير الناس من فتنة الشيطان

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة الأعراف (٢٦-٣٠)

التفسير الإجمالي للآيات

تتوجه الآيات بالخطاب إلى بني آدم حيث يذكرهم الله سبحانه بنعمة اللباس الذي به يسترون عوراتهم، ويحفظون أجسامهم، كما أنه زينة يتزينون به، ويحذرهم الله سبحانه من فتنة الشيطان وإغوائه، مذكراً بأن الشيطان قد أغوى أبويهم وأخرجهما من الجنة بعد أن نزع عنهما لباسهما، وأن الشياطين فتنة للذين لا يؤمنون، وقد استجاب الذين لا يؤمنون للشياطين وفُتنوا بهم حتى صاروا إذا فعلوا فاحشة من الفواحش يقولون: وجدنا عليها آباءنا فنحن نقتدي بهم، ويقولون: إن الله أمرنا بها فنحن نفعل ما أمرنا الله به، وكل ذلك من تلبيس الشيطان وفتنته، فالله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضاها من عباده، فكيف يقول هؤلاء على الله ما لا يعلمون، وينسبون إليه ما لا يجوز؟

الله سبحانه أمر بالعدل، ودعا إليه، وأمر بالإيمان به والتوجه إليه، في الصلاة والدعاء والإخلاص له في كل عمل. فلا بد من يوم تعودون إليه جميعاً، وستكونون فريقين؛ مهتدين وضالين، أما المهتدون فأمرهم ظاهر، وأما الضالون فهم الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة ما كان من آدم وحواء، وأن الشيطان وسوس لهما، وأوقعهما في الزلة، فانكشفت منهما العورات، وأخذا يلصقان عليهما من ورق الجنة، مما يدل على أن ستر العورات قضية فطرية مركوزة في النفوس، وأن ظهور العورات أمرٌ يُستحيا منه، فجاءت هذه الآيات تبين نعمة الله تعالى في إنزال اللباس الذي يستر به الناس عوراتهم، ويتزينون به، مبينة أن هذا اللباس يستر ظاهراً أما اللباس الباطن فهو لباس التقوى، الذي يستشعر به المرء مخافة الله تعالى. ثم حذرت الآيات بني آدم من طاعة الشيطان الذي نزع عن أبويهم لباسهما، وتسبب في إخراجهما من الجنة، وبينت أن الشياطين يتولون الذين لا يؤمنون، ويدعونهم إلى الفواحش والمنكرات، فإذا وقعوا فيها زعموا أنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، وأن الله أمرهم بها، ولا شك أن هذا الزعم باطل فاسد، فالله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضاها لعباده.. وهكذا تتصل هذه الآيات بآيات المقطع السابق اتصالاً محكماً وثيقاً.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل الآيات بموضوع السورة من حيث إنها تدعو بني آدم إلى عبادة الله وتوحيده والبعد عن طاعة الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة، مؤكدة على عداوة الشيطان للناس وحرصه على فتنتهم وإغوائهم، وحرمانهم من العودة إلى الجنة.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - إن نعمة الله على عباده باللباس والستر من النعم العظيمة، لما فيها من فوائد ومنافع كثيرة مثل: ستر عورة الإنسان، ووقايته من الحرّ والبرد، وتجمُّله بين الناس بهذه الزينة الظاهرة، وإذا كان الشيطان وأعوانه من المفسدين يدعون إلى كشف العورات ليزينوا للناس المنكرات، ويهوِّنوا عليهم ارتكاب الفواحش، فإن في اللباس والستر ما يحصّن المسلم من مكائد الشيطان وخُدعه.

٢ - نعمة الستر واللباس تستر ظاهر الإنسان، أما باطنه فيحتاج إلى لباس آخر هو لباس التقوى وذلك بأن يكون المسلم في كل أحواله مراقباً لله تعالى، حريصاً على طاعته ومرضاته، بعيداً عن عصيانه ومخالفته.

٣ - يحذر الله سبحانه بني آدم من الاستجابة لفتنة الشيطان وإغوائه، ويذكّرهم بأن الشيطان عدوّهم وعدوّ أبويهم آدم وحواء، فهو الذي أغراهما بالأكل من الشجرة، فتسبب بكشف عوراتهما، وإخراجهما من الجنة.

٤ - للشيطان وسائل وطرق كثيرة في الكيد للناس وإيقاعهم في حبائل مكره، وهو وأعوانه من الشياطين يرون الناس، والناس لا يرونهم، وهذا يجعل كيد الشياطين أشدَّ وأقوى، ويدعو المسلم إلى الحذر من الشياطين، والاعتصام بحبل الله، لينجو منهم.

٥ - لقد أضل الشيطان كثيراً من الناس، وزين لهم الشرك بالله، وعبادة الأصنام، وارتكاب الفواحش والمنكرات، مثل: وأد البنات، وقتل النفس بغير حق، وطواف المشركين بالبيت عراة.. ولم يكتف المشركون بذلك، بل كانوا إذا فعلوا ذنباً قبيحاً اعتذروا عنه بعذرين الأول: أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم. والثاني: زعموا أن الله تعالى أمرهم بذلك. وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد لأن وجود آبائهم على القُبح لا يسوِّغ لهم فعلَه، ولأن الله سبحانه لا يأمر عباده بالفحشاء.

٦ - إن الله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضاها من عباده، ومع ذلك فقد تقوّل المشركون على الله بغير علم، ونسبوا إليه ما لا يليق بجلاله. والقول بغير علم في أي أمر من الأمور لا يُقبل ولا يسوغ، فكيف إن كان في التقوُّل على الله تعالى؟

٧ - الله سبحانه يأمر بالعدل، ويدعو إلى القسط، وإعطاء الحقوق لأصحابها كما أنه يدعو الناس إلى أن يتوجهوا إليه في صلاتهم وعبادتهم، ويخلصوا في عبادته ودعائه وتوحيده.

٨ - إن يوم القيامة حقيقة مؤكدة لا مرية فيها، وكما بدأ الله الخلق فإنه سيعيدهم، وسيبعثهم

ليجازي كلاً منهم بما عمل، وسيكون الناس في ذلك اليوم فريقين؛ سعداء وأشقياء. فالفريق الذي هداه الله هم المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حقت عليه الضلالة هم الكفار الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، وأطاعوهم في معصية الله ومع هذا فإنهم يحسبون أنهم مهتدون.

إباحة الزينة والطيبات وتحريم الفواحش والمنكرات

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ
٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا
بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ ﴾ (الأعراف ٣١-٣٤)

التفسير الإجمالي للآيات

أمر الله سبحانه بني آدم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وأذن لهم أن يستمتعوا بما رزقهم من الطيبات من غير إسراف، فالله سبحانه لا يحب المسرفين، كما بين سبحانه أن الزينة والمتاع الحسن والطيبات من الرزق كلها من الأمور المباحة، فقد جعلها الله للناس جميعاً ليتمتعوا ويرتفقوا بها، هذا في الحياة الدنيا، أما في الآخرة فستكون الطيبات خالصة للمؤمنين، وسيُحرم منها الكافرون.

ويبين سبحانه المحرمات التي حرَّمها على عباده، وحذَّرهم منها، وهي الفواحش سواء أكانت ظاهرة أم باطنة، واقتراف الإثم والبغي على الناس وظلمهم، والشرك بالله، والقول على الله بغير علم.

وتذكر الآيات بأن كل أمة لا بد لها من أجل تصير إليه، ونهاية تنتهي إليها، وعندما يأتي

أجل أمة، فلن تتأخر ساعة، ولن تتقدم ساعة، فالأجل المحتوم منضبط بوقت محدد لا يزيد ولا ينقص، وعلى كل إنسان أن يستعد لذلك الأجل.

أسباب النزول

عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوافا؟ تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾.[(١)]

التطواف: ثوب تلبسه المرأة تطوف به، وكان أهل الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض، ولا يأخذونها أبداً، ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى، ويسمى اللَّقَا، حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة، فقال تعالى: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾، وقال النبي ﷺ: «لا يطوف بالبيت عريان».[(٢)]

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها وهو قول الله ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾[(٣)] يعني شارك المسلمون الكفارَ في الطيبات في الحياة الدنيا فأكلوا من طيبات طعامها، ولبسوا من جياد ثيابها، ونكحوا من صالح نسائها، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء.[(٤)]

---

(١) صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٤/ ٢٣٢٠، رقم ٣٠٢٨.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٨/ ١٦٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري ١٢/ ٣٩٨.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨، رقم ٨٤٢٧.

مناسبة الآيات لما قبلها

حذّرت الآيات السابقة من طاعة الشياطين واتخاذهم أولياء من دون الله، ودعت إلى الإيمان وإخلاص الدين لله وحده، وبينت هذه الآيات أن المشركين كانوا يحرمون ما أحل الله من الطيبات والزينة، ويحلون ما حرم الله من الفواحش والبغي والشرك، وهم بهذا يطيعون الشياطين ويتبعونهم، ثم بينت الآيات أن هذه الطيبات مباحة في الدنيا لجميع الناس، لكنها ستكون في الآخرة خالصة للمؤمنين، وسيُحرم منها الكفار الذين لم يستجيبوا لنداء الحق، ولم يؤمنوا بالله سبحانه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

يتضح من هذه الآيات ذلك الاتصال الوثيق بينها وبين موضوع السورة الذي يتناول العقيدة في تاريخها الطويل البعيد، عبر رحلة البشرية منذ كانت على هذه الأرض، فهؤلاء المشركون يشكلون حلقة من سلسلة البشر التائهين الذين غرّر بهم الشيطان، فبدلاً من الإيمان والهدى تحولوا إلى أَتباع للشياطين ينقادون لهم في تحريم الحلال واستحلال الحرام، والشرك بالله، والبغي على الناس، والقول على الله بغير علم.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - أمر الله سبحانه بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف، وفي قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة، بل سترُها عن الناس واجب في كل حال من الأحوال.

٢ - أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب، وأحل لهم الطيبات، ونهاهم عن الإسراف، فلا زُهد في ترك الطعام والشراب. وعلى المرء أن يأخذ منه ما يكفيه ويعينه على القيام بما عليه من عمل، فلا يقلل منه على وجه يَضعُف به بَدَنُه عن القيام بواجباته من طاعة أو عمل وطلب للرزق، ولا يسرف في إنفاقه، كأن يأكل لغير حاجة، وفي وقت شبع.

٣ - لا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرمه الله، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخلٌ في الزينة ولم يمنع منها مانع شرعي. وكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس فإنه لا مانع من تناول الطيب منها. فهذه الطيبات مباحة للذين آمنوا في الحياة الدنيا، وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة لكنها ستكون خالصة يوم القيامة للمؤمنين، مختصة بهم لا يشاركهم فيها الكفار.

٤ - إن الله سبحانه لم يحرم الزينة على عباده، ولم يحرم عليهم الطيبات من الرزق، ولكنه حرّم الفواحش بجميع أنواعها، سواء أكانت ظاهرة مُعلنة، أو باطنة خفية، كما حرّم المعاصي والآثام، وحرم البغي والظلم، كما حرم الشرك، ولكن المشركين يفعلون ما حرّم الله ويتركون ما طلب الله منهم فعله والقيام به.

٥ - لكل أمة من الأمم أجل مسمى، تنتهي إليه، ومدة محدودة معلومة، والله سبحانه هو الذي قدر هذه الآجال، بحسب علمه الواسع المحيط، ولا بد أن تسير كل أمة إلى أجلها المحتوم وإذا جاء أجل أمة من الأمم كان ما قدره الله عليهم واقعاً في ذلك الأجل، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه ساعة.

٦ - ويؤخذ من هذا أن كل ميت يموت بأجله، وإن كان موته بالقتل أو التردي أو نحو ذلك ولا تعارض، فهو قد مات بأجله، وإن كان بسبب حادثة عرضت له من قتلٍ أو نحوه فيكون السبب قد وافق القدر الذي جرى في علم الله سبحانه.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغيَرُ من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، فلذلك مدح نفسه»[١].

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٦٩٩، رقم ٤٣٦١، باب: إنما حرم ربي الفواحش.

إرسال الرسل وعاقبة المكذبين

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ سورة الأعراف (٣٥-٤١)

التفسير الإجمالي للآيات

يخاطب الله سبحانه بني آدم مبيناً لهم أنه سيرسل إليهم رسلاً منهم يدعونهم إلى الإيمان ويبينون لهم طريق الهدى، ويحذرونهم من الكفر والضلال، فمن اتبعهم وآمن وأصلح فسيكون من أهل الجنة، ومن كذب الرسل واستكبر عن الإيمان فسيكون من أصحاب النار.

وأشد الناس ظلما من يفتري على الله الكذب، أو يكذب بآياته، وهؤلاء سيكون موقفهم عصيباً يوم يأتي الملائكة ليقبضوا أرواحهم، فيسألونهم استنكاراً وتقريعاً: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟ هل أغنوا عنكم شيئاً؟ فيقولون: غابوا عنا، ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. عندئذ يقال لهم: ادخلوا النار مع الأمم الكافرة من الجن والإنس، ويكون المشهد الرهيب المخيف، مشهد الأمم الكافرة تُلقى في النار تباعاً، كلما دخلت أمة لعنت أختها فإذا استقروا فيها جميعاً دعا الأتباع المستضعفون ربّهم أن يضاعف العذاب لسادتهم المتبوعين لأنهم سنُّوا لهم طريق الغي والضلال، ورد المتبوعون على الأتباع: ليس لكم علينا من فضل

بل نحن وإياكم في الكفر سواء، فذوقوا من العذاب ما ذقنا. ثم تبين الآيات أن هؤلاء المكذبين المستكبرين يذوقون العذاب، فعند موتهم وقبض أرواحهم لا تفتح لهم أبواب السماء، ويوم القيامة تُحرم عليهم الجنة، فلا يمكن بحال أن يدخلوها حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة، وهذا يعني استحالة دخولهم الجنة، وهم يستحقون هذا الحرمان لإجرامهم وظلمهم، وسيمكثون في النار، منها فراشهم وغطاؤهم، وفيها بؤسهم وشقاؤهم.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة أن الله سبحانه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله والافتراء عليه، وهذه الآيات تبين جزاء الذين أشركوا بالله وافتروا الكذب وأجرموا، فاستحقوا أن يُلقَوا في النار خالدين فيها. كما تبين الآيات أن أهل النار يتلاعنون فيها، وكلٌّ يُنحي باللائمة على غيره، لكن ذلك لن يعفيهم من العذاب، ولن يُخففه عنهم.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهؤلاء الكفار من سائر الأمم يُلقون في النار، بما أشركوا وظلموا وافتروا على الله سبحانه، وكلما دخلت أمة منهم النار لعنت أُختها فهذه الأمم حلقات متتالية في سلسلة الضلال عبر تاريخ البشرية.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - من رحمة الله سبحانه أنه لم يترك البشر بلا هداية، بل أرسل إليهم رسلاً منهم يعلمونهم ويرشدونهم، ويبينون لهم، فمن اتقى المعاصي وابتعد عنها، وأصلح نفسه باتباع الرسل وإجابتهم كان من الناجين الفائزين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن كذب بالآيات، ورفض الإيمان بها، واستكبر عنها كان من أصحاب النار، جزاءً على كفره وتكذيبه.

٢ - لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو كذب بآيات الله وجحدها، وكل من افترى على الله كذباً، أو كذّب بآياته سيناله نصيبه مما كتب الله له من خير وشر، أو سيناله من العذاب بقدر كفره وافترائه.

٣ - حين تأتي ساعة الموت فإن الملائكة الموكلين بقبض أرواح هؤلاء المكذبين يسألونهم موبخين زاجرين: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ فيقولون: ضلوا عنا. أي ذهبوا عنا وغابوا، فلا ندري أين هم؟ وعندئذ يُقرّون على أنفسهم بالكفر، ويعرفون مقدار ما كانوا فيه من ضلال وخُسران.

٤ - يوم البعث الذي يكذب به المشركون حقيقة واقعة مؤكدة، حيث سيُحشر الإنس والجن، ويأمر الله سبحانه أُممَ الكفر أن تدخل النار، جزاءً على كفرها وضلالها، وكلما دخلت أمة من الأمم الماضية لعنت الأمةَ التي سبقتها إلى النار، فإذا تداركوا وتتابعوا واجتمعوا في النار قالت أخراهم دخولاً لأولاهم دخولاً، أو قال المستضعفون لرؤسائهم وكبرائهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار، وخُصَّهم بمزيد من العذاب لقاء إضلالهم إيانا. فيردُّ عليهم بأن لكل طائفة منكم ضعفاً من العذاب، فللطائفة الأولى ضعف وللطائفة الأخرى ضعف، إذ لا يُعفى من تبعات الضلال والكفر أحد منكم.

٥ - حين يسمع الأولون أو الكبراء ما قاله الآخرون أو المستضعفون، يردون عليهم قائلين: فما كان لكم علينا من فضل، بل نحن سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه. وهكذا ينال المكذبون جزاءهم، ويذوقون العذاب الشديد، بسبب كفرهم وظلمهم.

٦ - توعَّد الله سبحانه المكذبين المستكبرين أن لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا ولا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا، ولا لأعمالهم، لأنها لا تُقبل بل تُرد عليهم ويضرب بها في وجوههم، كما توعَّدهم بالحرمان من دخول الجنة، وسيكون مصيرهم النار، تغشاهم من كل جانب، ويأتيهم هولها وعذابها من فوقهم ومن تحتهم.

بين أصحاب الجنة وأصحاب النار

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا
لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ
رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا
عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ **(الأعراف ٤٢-٤٥)**

التفسير الإجمالي للآيات

يَعِدُ الله سبحانه المؤمنين الذين عملوا الصالحات، أن يكونوا أصحاب الجنة وأهلَها، ينالون فيها الخلود، بعد أن تطهر صدورهم من الغل والشحناء، ويُمتعون بالأنهار تجري من تحتهم، فيحمدون الله على هذا النعيم الذي هداهم إليه، ويأتيهم النداء: أنكم أورثتم الجنة بأعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا.

ويبدأ الحوار بين الفريقين؛ أصحاب الجنة وأصحاب النار، بعد أن يستقرَّ كل فريق في موقعه، فينادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار قائلين لهم: لقد صدقنا الله وعده، وأعطانا النعيم والخلود في الجنة كما وعدَنا فهل تحقق لكم ما توعدكم الله به من العذاب؟ فيقولون: نعم، وعندئذ ينادي منادٍ: أن لعنة الله على الظالمين، الذين كانوا في الدنيا يصدون عن سبيل الله، وينحرفون ويحرفون الناس عن طريق الحق، ويكفرون بالآخرة، فهاهم في النار يذوقون العذاب، ويغشاهم الهوان.

مناسبة الآيات لما قبلها

ذكرت الآيات السابقة مصير أهل النار وعذابهم وتلاعنهم فيها، وما يحمله كل منهم للآخرين من غل وحقد وغيظ، وبينت الآيات هنا جزاء أهل الجنة، وأنهم يتنعمون فيها، وقد

سلمت قلوبهم من الغل، وصفت عن البغضاء، وتوجهوا إلى ربهم بالحمد على أنه هداهم ووفقهم لدخول الجنة. ثم استكملت الآيات الصورة بعرض مشهد الحوار بين أصحاب الجنة الذين قرَّت عيونهم بنعمة الله، وأصحاب النار الذين اعترفوا بذنوبهم بعد أن ضيعوا فرصتهم فاستحقوا اللعنة والعذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

يتضح من هذه الآيات الاتصال الوثيق بينها وبين موضوع السورة الذي يتناول العقيدة في تاريخها الطويل البعيد، عبر رحلة البشرية منذ كانت على هذه الأرض، وإلى أن تعود إلى الملأ الأعلى ويُفصل بينها، فإما إلى الجنة وإما إلى النار، وها قد عاد المؤمنون المتقون إلى الجنة يُمتعون فيها، ورجع المشركون إلى النار، يرونها عياناً، ويقاسون حَرّها وعذابها.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - وعد الله - سبحانه - المؤمنين الذين عملوا الصالحات أن يدخلوا الجنة خالدين فيها، وسيكونون فيها بأحسن حال، وأطيب عيش، حين ينزع الله سبحانه من صدورهم الغلَّ فتصفو قلوبهم، ويتوادون ويتحابّون، وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن على المسلم أن يكون سليم الصدر، بعيداً عن الغلّ والحقد، ليكون أقرب إلى الله تعالى، وأعظم أجراً عنده.

٢ - حين يدخل أهل الجنة منازلهم فيها، يحمدون ربهم قائلين: الحمد لله الذي هدانا لهذا الجزاء العظيم وهو الخلود في الجنة ونزع الغل من الصدور، والهداية لهذا كانت بالهداية للإيمان والعمل الصالح في الدنيا. ثم يتحدثون بفضل الله عليهم، وبما وجدوا من تصديق ما جاءتهم به الرسل، وعندئذ ينادَون: أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. وفي هذا تنويه بأهمية العمل الصالح، وحثٌّ عليه.

٣ - أخرج البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يدخل أحداً الجنةَ عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة

ورحمة»(١) ولا تعارُض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ لأن العمل الصالح لا بُد منه لدخول الجنة، ولأن رحمة الله لا تكون إلا للمتقين الذين يعملون الصالحات.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «ينادي مناد إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قوله عز و جل: ﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣]. (٢)

أصحاب الأعراف

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ
يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾
أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ
كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ
عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ
جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ **(الأعراف ٤٦-٥٣)**

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٣، رقم ٦١٠٢.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٢، رقم ٢٨٣٧.

التفسير الإجمالي للآيات

تعرض الآيات مشهداً من مشاهد يوم الحشر، حيث يُجمع الأولون والآخرون، ويحاسبون على أعمالهم، فيُعرفُ الذين سيكونون من أهل الجنة بعلاماتهم، ويُعرف الذين سيدخلون النار بعلاماتهم، وهناك فريق ثالث، شرَّفهم الله سبحانه بأن جعلهم على الأعراف، والأعرافُ منازل شريفة عالية، وأصحابها هم أرفع الناس درجةً، وأعلاهم رتبة، وأرجح الأقوال فيهم أنهم الرسل والأنبياء، (1) فهم يشرفون من منازلهم العالية على أهل الموقف، ويعرفون من سيصيرون إلى الجنة بعلاماتهم، ويعرفون من سيذهبون إلى النار بعلاماتهم، فينادوا أصحاب الجنة مسلمين عليهم، ثم تُصرف أبصارهم نحو أصحاب النار، فيدعون ربهم أن لا يجعلهم منهم، ويخاطبون رجالاً من أهل النار على جهة التوبيخ والتقريع قائلين لهم: ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم، فقد كنتم في الدنيا تسخرون من المؤمنين، وتُقسمون أنهم لن ينالوا خيراً، ولن تشملهم رحمة الله، وها هم الآن سيقال لهم: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، أما أنتم فستُدخلون النار بعد قليل.

وينتهي الحساب ويدخل أهل الجنة الجنةَ متنعمين بما فيها من رزق وخير، ويدخل أهل النار النارَ فيقاسون حرَّها وهولَها، ويشتد عليهم الكرب، فينادون أهل الجنة مستغيثين: أعطونا شيئاً من الماء أو من الرزق الذي رزقكم الله إياه، فيرد عليهم أهل الجنة: إن الله حرمهما على الكافرين بسبب كفرهم وجحودهم ونسيانهم لقاء يومهم هذا. ولأنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً فشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، واغترّوا بالدنيا ومتاعها، فركنوا إليها، واطمأنوا بها.

وتعود الآيات مجدداً إلى بيان أن الله سبحانه أنزل كتاباً فصَّله على علم، وجعله هدى ورحمة لقوم يؤمنون، وأن أهل النار كذبوا به ونسوه، فلما رأوا تحقُّقَ ما وعد به يوم القيامة اعترفوا بأنه

---

(1) انظر: مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٧/ ١٠١، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي ٦/ ١٧٧.

حق، وأخذوا يبحثون عن الشفعاء ليشفعوا لهم، ويتمنون أن يردوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، وهيهات، فقد خسروا أنفسهم، وأضاعوا فرصتهم.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة أن الطيبات من الرزق حلال ومباحة في هذه الدنيا للمسلمين والكفار، لكنها ستكون خالصة للمؤمنين يوم القيامة، لا يشاركهم فيها أحد من الكفار وبينت الآيات هنا أن أهل النار يطلبون من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو الرزق، فيرد عليهم أهل الجنة أن الله حرم ذلك على الكفار.

وذكرت الآيات السابقة جزاء كل من أصحاب الجنة وأصحاب النار، وجاءت هذه الآيات تعرض حال كل من الفريقين في ساحة الحشر، وأن لهم علامات يُعرفون بها، وموقف أصحاب الأعراف وهم يخاطبون كل فريق بما يناسب مقامه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تعرض الآيات هنا مشهداً حياً لا يوجد مثله في سائر القرآن الكريم، هو مشهد الحوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار من ناحية، وحوار أصحاب الأعراف مع أصحاب الجنة وأصحاب النار من ناحية أخرى، لتقرر في نهاية المطاف أن الإيمان والعمل الصالح هو السبيل لدخول الجنة، وأن الكفر والعصيان هو السبيل إلى النار، وهذا المشهد يتفق مع موضوع السورة وسياقها.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - يُحشر الناس يوم القيامة ويحاسبون على أعمالهم، ويمتاز أصحاب النار بعلامات، وأصحاب الجنة بعلامات، ويُفصل بين الفريقين بحجاب، وهو السور المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ ﴾[الحديد:١٣] ويكون على الأعراف رجال، الأعراف: جمع عرف وهي شرفات السور المضروب بينهم، والأعراف في اللغة: الأماكن المرتفعة، وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[النور: ٣٧].

٢ - اختلف العلماء في أصحاب الأعراف من هم فقيل: هم الشهداء، وقيل: هم فضلاء المؤمنين فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس، وقيل: هم أنبياء، وقيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وقيل: هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة، وقيل: هم أولاد الزنا، وقيل: هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار. والراجح من هذه الأقوال- والله أعلم- **أنهم الأنبياء**، لأن الأعراف منزلة عالية رفيعة، وليس لأحد أن يكون أرفع درجة من الأنبياء يوم القيامة، وهذا في الحشر قبل أن يصرف الناس إلى الجنة أو إلى النار. (١)

٣ - لكل من أهل النار وأهل الجنة علامات يُعرفون بها، وذلك قبل الانصراف إلى الجنة أو النار، فمن علامات أهل الجنة بياض الوجوه، أو مواضع الوضوء من المؤمنين، ومن علامات أهل النار سواد الوجوه وما يعلوها من غبرة وعبوس. (٢) والذي يبدو من سياق الآيات أن المقصود علامات أُخَر لا يعرفها عامة الناس، بل يعرفها أصحاب الأعراف دون غيرهم.

٤ - الضمير في قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ عائد على أصحاب الأعراف وأصحاب الجنة، إذ يقولون لهم ذلك وقد عرفوهم بسيماهم قبل أن يؤذن لهم بدخول الجنة، أي لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف، ولم يدخلها المخاطبون، والحال أنهم يطمعون في دخولها، وقيل: هم أهل الجنة أي أن أهل الأعراف قالوا لهم: سلام عليكم حال كون أهل الجنة لم يدخلوها والحال أنهم يطمعون في دخولها، وقيل هم أصحاب الأعراف، والصحيح الأول. (٣)

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي ٢/ ٤٨٤، وتفسير اللباب لابن عادل ٧/ ٣٥٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٢/ ٤٨٩.

(٢) انظر: زاد المسير ٢/ ٤٨٤، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني ٣/ ٤٢.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٧/ ١٠٤-١٠٥، والبحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ٥/ ٣٥٢، ولم أجد من المفسرين من جعل الضمير عائداً على الفريقين، مع أنه لا مانع منه.

٥ - لم يأت مصدر على تِفعال بكسر أوله غير مصدرين أحدهما تِلقاء والآخر تِبيان، وما عداهما بالفتح.

٦ - إن على الذين يعتزون بمالهم وجاههم وكثرة أتباعهم أن يعلموا أن هذا كله لن يغني عنهم من الله شيئاً، ولن يدفع عنهم العذاب.

٧ - كان الكفار في الدنيا إذا رأوا ضعفاء المسلمين يُقسمون أنهم لن يكسبوا خيراً، ولن تنالهم رحمة الله، وكانوا يستهزءون بهم، وفي يوم القيامة يتغير الحال، ويُقال لهؤلاء الكفار على وجه التبكيت والتحسير لهم: أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟ ها هم ينتظرون أن يُقال لهم: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

٨ - إذا انصرف أهل الجنة إلى الجنة، وأدخلوها وتبوءوا منازلها، وصُرف أهل النار إلى النار، وذاقوا من عذابها، أخذوا ينادون أهل الجنة مستغيثين ضارعين: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾. فيردون عليهم قائلين: إن الله حرم الماء والرزق على الكافرين، فلا نواسيكم بشيء مما حرمه الله عليكم. لأنكم ما كنتم تقيمون للدين وزناً، ولا تعرفون له قدراً، بل اتخذتموه لهواً ولعباً، وركنتم إلى الحياة الدنيا واغتررتم بشهواتها ومتعها الفانية الزائلة.

٩ - لقد أنزل الله الكتاب بالحق، وفصّله عالماً به حال كونه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ للمؤمنين، واشتمل هذا الكتاب على البيان الشافي، ولكن الكفار كذّبوا به وأنكروه، فهل ينتظرون - بعدم إيمانهم به - إلا ما يؤول إليه أمره من تبيُّن صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد؟ ويوم يأتي تأويله هو يوم القيامة، حيث يُفضي كلٌ إلى ما قدم من عمل، ولا ينفع المكذبين أن يعترفوا، ولا يكون لهم شافع، ولا يجابون إلى ما طلبوا.

من مظاهر قدرة الله تعالى

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ سورة الأعراف (٥٤-٥٨)

التفسير الإجمالي للآيات

يوجه القرآن أنظار العباد وعقولهم إلى بعض مظاهر قدرة الله سبحانه في هذا الكون، فهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وهو الذي يجعل الليل يغطي بظلمته النهار، وسخر الشمس والقمر والنجوم، فالشمس للدفء والضياء، والقمر للإنارة، وكلاهما لمعرفة عدد السنين والحساب، ومعرفة المواقيت، والنجوم زينة للسماء وحراسة لها، وبها يهتدي الناس في ظلمات البر والبحر.

إن الذي سخر لنا هذه المخلوقات العظيمة هو الله الذي له الخلق والأمر، فعلينا أن نتوجه إليه بإخلاص الدعاء والضراعة الدالة على شدة الخوف من عذابه، وغلبة الرجاء والطمع في رحمته.

عن الحسن قال: «لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾، وذلك أن الله ذكر

عبداً صالحاً فرضي قوله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾. [١]

وهو سبحانه يدعونا إلى الإخلاص والإصلاح، كما يدعونا إلى البعد عن الفساد والتخريب، فمن التزم بأمر الله تعالى كان من المحسنين، واستحق أن تصيبَهُ رحمة الله.

ورحمة الله عامة تشمل كثيراً من المعاني، ويدخل فيها العفو والمغفرة والتوفيق والإنعام كما يدخل فيها إغاثة الناس بالمطر، وإرسال الرياح لتحمل السحاب المثقل بالمطر، وتسوقه إلى البلاد المجدبة الميتة، وإنزاله فيها غيثاً تحيا به الأرض، ويستبشر به الناس، لما فيه من الخصب والبركة والخير، ومع هذا المشهد الرائع المثير، مشهد إحياء الأرض بعد موتها، وإخراج نباتها وأحيائها، يُذكّرنا القرآن بإخراج الموتى من قبورهم يوم البعث، وأن ذلك هين على الله سبحانه، كإحياء الأرض بعد موتها.

وكما أن هناك أرضاً تحيا بالماء، وتنبت من كل زوج بهيج، ويخرج نباتها طيباً مباركاً، لأن تربتها طيبة، فهناك أيضاً أرض خبيثة مالحة، لا تنبت إلا الشوك والنبات المُرَّ الذي لا خير فيه، وفي هذا إشارة إلى أن القلوب التي تَقبل ذكر الله تعالى وهديَه ورحمته تَنبُت فيها الحكمة، وتُشرق بأنوار العلم والهدى، أما القلوب الخبيثة النكدة فلا يزيدها ذكرُ الله وهديه إلا بعداً عن الحق، وإغراقاً في الضلال.

مناسبة الآيات لما قبلها

عرضت الآيات السابقة بعض المشاهد مما يكون في يوم القيامة، من حوار بين أهل الجنة وأهل النار، ومخاطبة أصحاب الأعراف لكل من أصحاب الجنة وأصحاب النار، وبينت الأسباب التي قادت الكفار إلى هذا المصير الفاجع الأليم، وأنهم لو كانوا يعقلون ويفقهون لما خسروا أنفسهم، وجاءت الآيات هنا تعرض عدداً من مشاهد قدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض وتغشية الليل النهار.. وإرسال الرياح التي تحمل الغيث للبلاد والعباد.. عسى أن

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٩.

تكون هذه الشواهد سبيلاً للاعتبار والتفكر، ودليلاً يقود إلى الإيمان.

وبينت الآيات السابقة أن الناس صنفان؛ صالحون محسنون، قبلوا الهدى واتبعوه فهم أهل الجنة، وفاسدون مجرمون، رفضوا الهدى وأعرضوا عنه، فهم أهل النار، وبينت الآيات هنا أن البلاد صنفان؛ بلاد طيبة تقبل الماء فتنبت النبات الطيب النافع، وبلاد خبيثة يخرج نباتها نكداً عسراً رديء الثمر.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

هذا المقطع من السورة يعرض بعض المشاهد التي تدل على عظمة الله تعالى وقدرته، فهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، وهو الذي يغشي الليل النهار، ويسخر الشمس والقمر والنجوم، وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، ويسوق السحاب الثقال إلى البلد الميت فينزل به الماء ويخرج به من كل الثمرات، وفي ذلك إشارة إلى إخراج الموتى من قبورهم، وبعثهم بعد الموت للعرض والحساب. إن عرض هذه المشاهد والدلائل يشكل دعوة صريحة لكل غافل أن يتفكر ويتدبر، لعله يهتدي ويتذكر فيعود إلى ربه، ويتوب من ذنبه.

والشيطان الذي أعلن عداوته من بداية الأمر يحرص أن يُبقي الإنسان في غفلة عن ربه، وأن يغره ويمنيه ويسول له، وكثيراً ما يستجيب الناس لأماني الشيطان، وينسون اليوم الآخر وتأخذهم الدنيا بشهواتها ومُتعها، فتأتي هذه الآيات مذكرة للإنسان بقدرة الله وعظمته وبأهمية العودة إليه والإقبال عليه قبل أن يطول الأمد ويضيع الوقت.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - إن الله سبحانه قادر على خلق السموات والأرض في لحظة واحدة، ولكنه خلقها في ستة أيام لحكم كثيرة منها أنه أراد أن يُعلم عباده الرفق والتأني في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلاً، فهو سبحانه قادر على أن يخلق المولود في لحظة واحدة، لكنه قضى أن يمر هذا المولود بأطوار النشأة والحمل، ويتدرج حتى يخرج إلى الحياة بشراً سوياً

وذلك أدلّ على القدرة.

٢ - الاستواء على العرش استواء يليق بجلال الله وعظمته، مع تنزُّهه عن مشابهة المخلوقات، لأنه سبحانه كما وصف نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. والاستواء في لغة العرب يأتي بمعنى العلو والاستقرار. قال الجوهري:[(١)] استوى على ظهر دابته أي استقر، واستوى إلى السماء أي صعد، كما يأتي بمعنى الاستيلاء والظهور، ومنه قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

واستوى الرجل: انتهى شبابه، واستوى: انتسق واعتدل. وحُكِي عن أبي عبيدة أن معنى استوى هنا: علا. ومثله قول الشاعر:

فأورَدَهم ماء ثقيفاً بقفرة ... وقد حلق النجم اليماني فاستوى

أي علا وارتفع. والعرش: يطلق على معان منها سرير الملك، وسقف البيت، ويطلق على الملك والسلطان والعز، ومنه قول زهير:

تداركتما عبسا وقد ثُلَّ عرشُها ... وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقول الآخر:

رأوا عرشي تثلم جانباه ... فلما أن تثلم أفردوني

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن وإحاطته بالسموات والأرض وما

(١) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٤٤، وأقاويل الثقات للكرمي ١/ ١٢٦-١٢٧.

بينهما وما عليهما وهو المراد هنا.[1]

٣ - من عجائب قدرة الله سبحانه أنه يغشي الليل النهار، أي يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي بظلمته ضياءه، ويستمر الليل والنهار في تتابع وحركة دائبة، وأنه سبحانه سخَّر الشمس والقمر والنجوم، لينتفع الناس ويرتفقوا بذلك.

٤ - لله سبحانه الخلق والأمر، فهو الذي يخلق ما يشاء، ويأمر بما يريد، ويتصرف بمخلوقاته كما يشاء.

٥ - أمر الله سبحانه عباده بالدعاء، وأن يكون الداعي متضرعاً بدعائه مخفياً له، والتضرع من الضراعة: وهي الذلة والخشوع والاستكانة، والخفية: الإسرار بالدعاء حتى يكون الدعاء خالصاً لله سبحانه، ليس فيه رياء.

٦ - من آداب الدعاء أن لا يعتدي الداعي في دعائه، ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل الداعي ما ليس له كالخلود في الدنيا، أو إدراك ما هو محال في نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء في الآخرة، أو يرفع صوته بالدعاء صارخاً به. فالمسلم يدعو ربه خاضعاً له متضرعاً متذللاً، ويستخفي بدعائه ليكون ذلك أقرب إلى الإخلاص والبعد عن الرياء، ولا يعتدي في دعائه ولا يدعو بالإثم أو قطع الرحم، ويجمع في دعائه بين خيري الدنيا والآخرة، ويُلح في الدعاء والرجاء، ولا يستعجل الإجابة، وعلى الداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجِلاً طامعاً في إجابة الله لدعائه، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء ظفر بمطلوبه. ويلتزم جميع شروط الدعاء وآدابه، فالدعاء عبادة عظيمة، يحبها الله ويثيب عليها، ويستجيب لمن يدعونه.

٧ - نهى الله سبحانه عن الفساد في الأرض بجميع أشكاله وألوانه، ومن الفساد قتل الناس

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي ١/ ٣١٣، ومفاتيح الغيب، للرازي ١١/ ٤١٢، وشرح العقيدة الطحاوية للراجحي ١/ ١٩٩.

وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم وتغوير أنهارهم، ومنه أيضاً الكفر بالله والوقوع في معاصيه، فمن ابتعد عن الفساد، وأقبل على عبادة الله وطاعته فهو من المحسنين الذين تنالهم رحمة الله.

٨ - مظاهر قدرة الله تعالى كثيرة يلاحظها الإنسان أينما توجه، فهو الذي يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته، تسوق السحاب المثقل بالمطر، وتحمله إلى البلاد الميتة المجدبة، ثم ينزل الغيث بإذن الله سبحانه بالبلد الميت، وما هي إلا أيام قليلة حتى نرى الأرض وقد أنبتت الزرع والكلأ والثمرات.

٩ - إن إخراج الموتى من قبورهم بقدرة الله تعالى ليس بالأمر المستغرب، فكما يُحيي الله الأرض بعد موتها، ويملأ فجاجها خصباً وحياة، فإنه قادر على إخراج الموتى من قبورهم، وإعادة الأرواح والحياة إلى أجسادهم.

١٠ - التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن الله وتيسيره خروجاً حسناً تاماً وافياً، أما التربة الخبيثة فإن نباتها لا يخرج إلا نكداً عسراً لا خير فيه. وهذا مثل للقلوب، فالقلب القابل للوعظ كالبلد الطيب، والمعرض عنه كالبلد الخبيث، أو هو مثل لقلب المؤمن والمنافق، أو هو مثل للطيب والخبيث من بني آدم، وكل ذلك تحتمله الآية.

قوم نوح عليه الصلاة والسلام وموقفهم من دعوته

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ سورة الأعراف (٥٩-٦٤)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه أرسل نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويحذرهم من عذاب يوم القيامة إن أصروا على ما كانوا عليه من الشرك وعبادة الأصنام، فرد عليه الملأ من الكبراء والأشراف والزعماء متهمين إياه بالضلال المبين الظاهر، لكنه رد هذه التهمة عن نفسه مبيناً أنه رسول من الله إليهم، وعليه أن يبلغهم رسالات ربه، وينصح لهم ويدلهم على الخير، فهم قومه، وهو منهم، والرائد لا يَكذبُ أهلَهُ. كما بين لهم أن الله تعالى علَّمه من علم الوحي والغيب ما لا يعلمون. لكن القوم رفضوا دعوته، منكرين أن ينزل الله الذكر على رجل منهم، وبشر مثلهم، فرد عليهم نوح أن هذا ليس بعجيب من أمر الله سبحانه، فالله سبحانه أنزل هذه الرسالة على بشر مثلهم، وأمره أن ينذرهم ويبلغهم، فلعلهم يتقون فتصيبهم رحمة الله، ويكون لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار.

لكن هؤلاء القوم كذبوا نبيَّهم، ورفضوا دعوته، وأصرُّوا على شركهم وضلالهم، واستمرَّ نوح يدعوهم ويُذَكِّرُهم مدة متطاولة، كما تَبيَّنَ في سور أخر، وفي نهاية المطاف أمر الله نوحاً أن يصنع الفُلْك أي السفينة العظيمة، وأن يدعو المؤمنين إلى ركوبها، فلما ركبوها نجاه الله وإياهم، وأنزل عذابه على أولئك القوم، حيث فُتحت أبواب السماء بماء منهمر، وتفجَّرت الأرض عيوناً تفور بالماء، فالتقى ماء السماء وماء الأرض، وصار طوفاناً أغرق الكفار وأهلكهم، وهكذا

كانت العاقبة بنجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين.

مناسبة الآيات لما قبلها

لما بين سبحانه كمال قدرته وبديع صنعته في الآيات السابقة ذكر هنا قَصص الأمم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم لتنبيه هذه الأمة على الصواب، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة.

وقد بينت الآيات السابقة أن الماء قد يكون سبباً في إحياء الأرض بعد موتها، وفي هذه الآيات بيان أن الماء من جنود الله التي يمكن أن تهلك الكفار والمجرمين، كما حصل لقوم نوح بعد أن كذبوا نبيهم.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشكل هذه الآيات حلقة أساسية من موضوع السورة، حيث تقص علينا - بإيجازٍ - قصة نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه، فقد دعاهم إلى الإسلام، وحذرهم من العصيان، لكنهم أصروا على الكفر وطاعة الشيطان وعبادة الأصنام، واتهموا نبيهم بالضلال، وتمادوا في ذلك على مدى عشرة قرون تقريباً، فحق عليهم العذاب، ونزل بهم الهلاك، وباءوا بخزي الدنيا وعذاب الآخرة. أما المؤمنون فقد نجاهم الله سبحانه في الفُلْك، وجعل لهم العاقبة.

لقد كان قوم نوح عليه الصلاة والسلام نموذجاً راسخاً للعناد والتكذيب، ومثلاً واضحاً لاستحواذ الشيطان على غالبية البشر، وكانت هذه القصة على - قصرها وإيجازها- حلقة كبيرة في سلسلة البشرية عبر تاريخها الطويل الحافل بتكذيب الأمم للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - كان نوح عليه الصلاة والسلام أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم، جاء يدعو قومه إلى توحيد الله سبحانه وترك عبادة الأصنام التي انتشرت بينهم، فقال يا قوم اعبدوا الله ما

لكم من إله غيره، فهو الإله الواحد المستحق للعبادة، ولبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، [١] يدعو إلى الله على بصيرة، ولا يترك وسيلة ولا طريقة من طرق الدعوة إلا اتبعها مع قومه، فحذرهم وأنذرهم، ورغَّبهم ورهَّبهم، ودعاهم سراً وعلانية، لكن الملأ من قومه وهم أشراف القوم ورؤساؤهم، ردوا عليه باتهامه بالضلال والعدول عن طريق الحق والذهاب عن الصواب.

٢ - صبر نوح عليه الصلاة والسلام على إيذاء قومه له، صبراً جميلاً، وبين لهم أنه رسول من رب العالمين، جاء يرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، ويبلغهم رسالات الله التي أرسله بها إليهم من الهدى والعلم، وينصح لهم. وهكذا شأن الدعاة أن يلتزموا بالأخلاق العظيمة كالصبر والحلم والنشاط في تبليغ الدعوة، والحكمة في مخاطبة الناس والتعامل معهم.

٣ - كان نوح يقص على قومه ما جاءه من الوحي من عند الله سبحانه، ويعلمهم أنه يعلم من الله ما لا يعلمون ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويقيم عليهم الحجة بما آتاه الله من فصاحة وبيان، ورغم كل ذلك رفض القوم دعوته، واتهموه بالجنون والكذب، وآذوه واستهزأوا به، وهو صابر لا يكف عن الدعوة، ولا يمل من نصحهم وإرشادهم.

٤ - استمر قوم نوح على كفرهم وضلالهم، ولم يؤمن مع نوح إلا قلة من قومه، وكانت العاقبة أن الله سبحانه نَجَّى نبيَّهُ وأولياءه المؤمنين في الفُلْك، وهي السفينة التي صنعها ليحمل فيها من آمن به واتبعه، وأغرق الذين كذبوا ورفضوا الإيمان والهدى، فقد كانوا قوما عمين، عميت قلوبهم، وانطمست بصائرهم عن رؤية الحق، وسماع الخير، فاستحقوا الهلاك والغرق بالطوفان.

---

(١) ورد هذا الرقم في قوله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) [العنكبوت: ١٤].

عاد وموقفهم من دعوة نبيهم هود عليه الصلاة والسلام

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ
الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ
يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا
أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
(٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ
وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ
وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾ سورة
الأعراف (٦٥-٧٢)

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه أرسل إلى عاد أخاهم هوداً يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده وطاعته، ويحذرهم من عذابه وعقابه، وكانت قبيلة عاد تسكن منطقة الأحقاف، وهي منطقة واسعة في جنوب جزيرة العرب بين اليمن وعُمان، وكان الواجب عليهم أن يطيعوه ويتبعوا ما جاءهم به فهو أخوهم ومنهم، ويعرفون صدقه وأمانته وحسن خُلُقه، لكن الملأ من هؤلاء القوم ردوا عليه رداً منكراً، واتهموه بالسفاهة وقلة العقل، كما نسبوه إلى الكذب، فرد عليهم ذلك مبيناً مهمته التي أرسله الله بها، وأنه ناصح لقومه، أمين فيما يبلغهم به، وأخذ يذكرهم بنعم الله عليهم، ومن هذه النعم أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وأنه أعطاهم بسطة في الأجسام، وقوة وضخامة زيادة على غيرهم من الناس، ومكن لهم في الأرض حتى كانت لهم دولة قوية.[1]

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٤٣٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣.

لكن القوم أنكروا على نبيهم أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك الأصنام الكثيرة التي وجدوا آباءَهم على عبادتها.

واستمر هود عليه الصلاة والسلام يدعو قومه إلى الله، ويحاورهم ويقيم عليهم الحجة يرغبهم بما عند الله من حسن الجزاء للمؤمنين، ويحذرهم من عذاب الله وبأسه إن أصروا على كفرهم وضلالهم، لكن القوم لم يلتفتوا إلى ذلك التحذير، بل تحدوه بأن يأتيهم بهذا العذاب الذي يعدهم به، ولما وصل بهم الأمر إلى هذه الدرجة من الإعراض والصد عن سبيل الله تعالى، وطال عليهم الأمد في الكفر والجحود، نَجَّى الله نبيه هوداً والمؤمنين الذين اتبعوه، وأنزل عقابه بالكافرين المكذبين، فأهلكهم ولم يُبق منهم أحداً.

وبهذا جرت على عاد سُنة الله في المكذبين، وحلت بهم النقمة حيث أرسل الله عليهم ريحاً باردة شديدة الهبوب عصفت بهم فأهلكتهم فكانوا كأنهم أعجاز نخل خاوية. [١]

مناسبة الآيات لما قبلها

لما بين الله سبحانه ما جرى لنوح عليه الصلاة والسلام مع قومه، حيث كفروا به وكذبوه فأهلكهم الله بالغرق، وجعلهم عبرة لمن بعدهم، ذكر هنا عاداً قوم هود عليه الصلاة والسلام مبيناً أنهم لم يعتبروا بقوم نوح، ولم يؤمنوا بما جاءهم به نبيهم، بل أصروا على الكفر والتكذيب فاستحقوا أن ينزل بهم بأس الله وعقابه، بعد أن نَجَّى الله نبيه هوداً والمؤمنين معه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

هذه الآيات تقص علينا خبر عاد، أولئك القوم الذين أوتوا بسطة في الأجسام وقوة وسطوة، ومكن الله لهم في الأرض، وأغدق عليهم النعم الكثيرة، لكنهم أصروا على كفرهم وضلالهم، وسلكوا سبيل الشيطان، وكذبوا نبي الله هوداً عليه الصلاة والسلام، فأهلكهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٤٣٥، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣.

الله سبحانه عن آخرهم، ونَجَّى نبيه والمؤمنين به، وهكذا تشكل هذه الآيات حلقة في سلسلة المواجهة بين الحق والباطل عبر التاريخ السحيق المديد، وتعرض صورة من صور انحراف البشرية عن منهج الحق وسبيل الإيمان.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - هود عليه الصلاة والسلام نبي كريم أرسله الله تعالى ليدعو قومه إلى الإسلام بعد أن كفروا وعبدوا الأصنام، وظلموا الناس. وسُمي أخاهم لأنه منهم، فكل من كان من القوم فهو أخوهم.

٢ - كان أول ما دعاهم إليه توحيد الله تعالى، وعبادته وحده، فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، كما قال نوح عليه الصلاة والسلام من قبله، وذلك لأن دعوة الأنبياء جميعاً واحدة، جاءوا جميعاً يدعون إلى توحيد الله سبحانه.

٣ - تصدى له أشراف قومه من الزعماء والكبراء، فنسبوه إلى السفاهة، وهي الخفة والطيش وقلة العقل، واتهموه بالكذب، وواجهوه بما يكره من الإيذاء والاستهزاء، وهذا شأن الأمم مع أنبيائهم ورسلهم.

٤ - رد عليهم هود بنفي السفاهة عن نفسه، وبين لهم أنه رسول الله رب العالمين، ولا يُقبل بحال أن يُرسل الله سفيهاً، ثم بين لهم أنه جاءهم يبلغهم رسالة الله، فالله سبحانه كلف كل رسول أن يبلغ الرسالة، وأن يدعو قومه إلى الهدى والإيمان، ويحذرهم من الضلال والكفر، وهو أمين على هذه الدعوة، ولا يمكن بحال أن يخون قومه أو يريد بهم شراً.

٥ - رد هؤلاء على نبيهم هود عليه الصلاة والسلام، بمثل ما رد قوم نوح على رسولهم، فعجبوا كيف ينزل الله الذكر والوحي على بشر منهم، وظنوا أن الرسول لا بد أن يكون ملكاً من الملائكة، فردّ عليهم هود عليه السلام منكراً عليهم هذا العجب، قائلاً لهم: أأنكرتم وعجبتم أن جاءكم هذا الذكر والوحي على رجل منكم تعرفونه وتعرفون صدقه وأمانته؟

٦ - ذكّر هود قومه بنعمة الله عليه حيث جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وذكّرهم بقوم نوح

الذين عمروا الأرض قبلهم، وعاشوا مدة طويلة، وكيف أهلكهم الله بالغرق، فلم يبق إلا آثارهم، وخرائب ديارهم، بسبب تكذيبهم وكفرهم، وها أنتم تخلفونهم، وتتمتعون بمثل ما كانوا يتمتعون به، وقد أكرمكم الله تعالى بنعمة أخرى هي بسطة الأجسام، وقوتها وضخامتها، مما جعلكم تغلبون الناس وتملكونهم فاذكروا آلاء الله ونعمه العظيمة، ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الأرض، والبسطة في الخلق، وغير ذلك مما أنعم الله به عليكم.

٧ - أنكر القوم على نبيهم أن يدعوهم إلى عبادة إله واحد، وتمسكوا بعبادة أصنامهم، تقليداً لآبائهم، وحفاظاً على موروثاتهم، فقالوا له: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا؟ وكلامهم هذا يتضمن الرد على نبيهم ورفض دعوته، فهم لا يقبلون بديلاً عن دين آبائهم.

٨ - لم يقف القوم عند هذا الحد بل قالوا لنبيهم على وجه التحدي والرفض: فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، وكان هود عليه الصلاة والسلام قد حذرهم من نزول العذاب بهم إن هم استمروا على كفرهم وتكذيبهم، فاستعجلوا بطلب العذاب تحدياً لنبيهم، وإصراراً على باطلهم.

٩ - حذرهم نبيهم مبيناً أنه لا بد أن يقع عليهم العذاب إذا استمروا في ضلالهم، وأنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة في الأصنام التي كانوا يعبدونها، مع أنهم يدركون أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنهم شيئاً. وكيف يجعلونها آلهة وهم يصنعونها بأيديهم؟

١٠ - لما رأى هود إصرارهم على كفرهم وشركهم توعدهم بأشد وعيد فقال: فانتظروا إني معكم من المنتظرين، أي فانتظروا ما طلبتموه من العذاب فإني معكم من المنتظرين له وهو واقع بكم لا محالة، ونازل عليكم في موعده بلا تأخير.

١١ - وحين جاء الأجل المحتوم نَجّى الله سبحانه نبيه هوداً ومن معه من المؤمنين، وأنزل العذاب بهؤلاء الكافرين، وقطع دابر القوم المكذبين، أي استأصلهم جميعاً عن آخرهم فلم يُبقِ منهم أحداً، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ ﴾[النجم: ٥٠-٥١]، وإنما استحق هؤلاء الهلاك والعذاب لأنهم كفروا بربهم وعصوا رسوله، واتبعوا سبيل الشيطان.

ثمود وموقفهم من دعوة نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ سورة الأعراف (٧٣-٧٩)

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً، وكانت قبيلة ثمود تسكن في جزيرة العرب على مقربة من الطريق المتجه من المدينة المنورة إلى تبوك، فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده وترك عبادة الأصنام، وأظهر لهم معجزة بينة أيده الله بها، وهي ناقة استخرجها من الصخر، بإذن الله تعالى، وأمرهم أن يتركوها ترعى في الأرض، ولا يتعرضوا لها بأذى، وذكرهم بما أنعم الله عليهم من نعم عظيمة، فقد جعلهم خلفاء من بعد عاد، ومكن لهم في الأرض فكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال، ويبنون قصورهم في السهول الواسعة، وكانت أرزاقهم دارّةً، والخيرات بأرضهم وافرة، وقد استجاب لصالح عليه الصلاة والسلام نفر من الضعفاء والبسطاء، أما الملأ فاستكبروا ورفضوا الإيمان، وتوجهوا إلى الضعفاء يسألونهم بتهكم واستهزاء: ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فأجاب هؤلاء بأنهم آمنوا به واتبعوه وصدقوه، عندئذ رد عليهم الملأ قائلين: ﴿ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ

كَٰفِرُونَ ﴾ كأنهم يقولون: إن أول شيء يدعونا إلى الكفر بما جاء به صالح هو أنكم اتبعتموه وآمنتم به، ونحن نريد أن نخالفكم، ولا نرضى أن نتبعكم.

استمر صالح يدعو قومه إلى الإيمان بالله، وأقام بينهم مدة من الزمان لا يتردد في عرض هذه الدعوة عليهم، ولا يمل من إنذارهم وتحذيرهم من عقاب الله، وترغيبهم بما أعده الله للمؤمنين، لكن القوم عموا وصمُّوا عن دعوته، ورفضوا الاستجابة له والدخول في دينه، وأخذ هؤلاء المجرمون يكيدون ويدبِّرون، فعقروا الناقة وقتلوها، وجاهروا بالكفر والتكذيب، وطالبوا صالحاً في تحدٍ واستكبار- أن يأتيهم بالعذاب الذي يخوفهم به، وأخذوا يدبِّرون لقتل صالحٍ وأهله.

وحين بلغوا هذا المبلغ من الكفر والإصرار على الظلم والطغيان حقت عليهم كلمة العذاب، فنجَّى الله تعالى نبيه صالحاً ومن معه من المؤمنين، وأنزل بأسه بالكافرين المكذبين، حيث أخذتهم صيحةٌ صاعقة شديدة، جعلت الأرض ترتجف بهم، حتى لم يبق منهم حيٌّ. ونظر صالح عليه الصلاة والسلام إلى ما حلّ بقومه من الدمار والهلاك، فقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، ولكن لا تحبون الناصحين.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن قصة هود عليه الصلاة والسلام، مبينة أن قومه قد كفروا به وكذبوه، وأن الله سبحانه أخذهم بالعذاب ونجّى نبيه هوداً والذين آمنوا معه، وتحدثت الآيات هنا عن قصة مشابهة هي قصة صالح عليه الصلاة والسلام مع قومه الذين كفروا به وكذبوه وآذوه، فأهلكهم الله سبحانه بعد أن نجَّى نبيه صالحاً والذين آمنوا معه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تعرض هذه الآيات حلقة أخرى من سلسلة الأجيال البشرية التي واجهت الدعوة وكفرت بالرسل ورفضت الإيمان، فالسورة تبين أن أمماً كثيرة كفرت وكذّبت، وفي النهاية

واجهت مصيراً مشابهاً، حيث كان العذاب ينزل بكل أمة من هذه الأمم المكذبة فيمحقها ويهلكها، وهذه الآيات التي تعرض قصة ثمود (قوم صالح عليه الصلاة والسلام) وتبين كفرهم وتكذيبهم وموقفهم من نبيهم، تبين أنهم أُهلكوا فلم ينج منهم أحد، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الأمم.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - صالح عليه الصلاة والسلام رسول كريم أرسله الله تعالى إلى قومه ثمود، وكانت مساكن ثمود في منطقة الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. وقد دعا صالح قومه إلى توحيد الله وعبادته فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، وحذرهم من الشرك بالله وعبادة الأصنام.

٢ - كذّب القوم ورفضوا اتباع صالح عليه الصلاة والسلام، وطالبوه أن يأتيهم ببينة على أنه رسول من عند الله تعالى، فأخرج لهم ناقة، وبين لهم أن هذه الناقة آية ظاهرة على أن الله تعالى أرسله إليهم.

٣ - كان من عجيب أمر هذه الناقة أنها تشرب ماء العين يوماً، ويشربون يوماً، وترعى في الأرض، فليس لهم أن يمنعوها أو يعترضوها، وفي يوم شربها يحتلبون منها ما يكفيهم من اللبن، [1] وحذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء، أو يؤذوها قائلاً لهم: فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء أي دعوها تأكل في أرض الله فهي ناقة الله، والأرض أرضه، فلا تمنعوها مما ليس لكم ولا تملكونه، ولا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها فإنكم إذا فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله وبأسه.

٤ - مضى صالح يدعو قومه إلى الله ويذكّرهم بفضله ونعمه عليهم، ويحذّرهم مما حصل للأمم من قبلهم، فالتذكير بالنعم يتضمن التوجيه إلى شكر المنعم، والتذكير بالمثلات والعقوبات

(١) كما ورد في الحديث الشريف، وسيأتي ذكره قريباً.

يتضمن التخويف والتحذير من المخالفة.

٥ - تشير الآيات إلى أن ثمود كانوا ممكنين في الأرض، مستخلفين فيها، ولهم من الملك والجاه والسلطان ما ليس لغيرهم، وكانوا يتخذون من سهول الأرض قصوراً يبنونها مستخدمين تراب الأرض ورملها وحجارتها في البناء، وينحتون في الجبال الصخرية بيوتاً يسكنون فيها، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها كهوفاً وبيوتاً واسعة للسكنى، وقد بلغوا من الحضارة وفنون العمران شأواً بعيداً.

٦ - ولأن القوة والسعة وكثرة المال والجاه تدعو أهلها إلى الإفساد والبغي، فقد حذّر صالح قومه من الإفساد في الأرض، مبيناً لهم سوء عاقبة المفسدين.

٧ - كان موقف الملأ- وهم الرؤساء المستكبرون من قوم صالح - أن جادلوا ورفضوا دعوته، وتوجهوا إلى من آمن مِنَ المستضعفين يستهزءون بهم، وينكرون عليهم الإيمان واتباع صالح عليه الصلاة والسلام.

٨ - ثم أخذوا يخططون ويمكرون بصالح ومن معه، في تحدٍّ واستكبار، غير مكترثين لما يترتب على ذلك من العواقب السيئة.

٩ - عقر القوم الناقة، والعقر: قطع عضو يؤثر في تلف النفس، يقال: عقرتُ الفرس إذا ضربت قوائمه بالسيف، وأصل العقر كسر عرقوب البعير، ثم قيل للنحر عقر، لأن العقر سبب النحر في الغالب، وأسند العقر إلى الجميع فقال: ﴿ فَعَقَرُواْ ﴾ مع أن العاقر واحد منهم لأنهم راضون بذلك موافقون عليه، وهذا يؤكد أن الرضا بالكفر كفر، والرضا بالمعصية مشاركة فيها.

١٠ - وكان عقرهم للناقة دليلاً واضحاً على عتوهم وطغيانهم واستكبارهم، ورغم ذلك لم يتوقفوا عن مطالبة صالح بأن يأتيهم بالعذاب، وهذا أشد ما يكون من التحدي والطغيان.

١١ - وتبين الآيات الواردة في سورة النمل أن القوم تآمروا لقتل صالح وأهله ليلاً، وأن يكتموا خبر ذلك عن وليه. وحين وصل الأمر بهم إلى هذا الحدِّ استحقوا أن ينزل بهم عقاب الله، وأن يأخذهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به.

١٢ - نجَّى الله نبيه صالحاً ومن آمن معه، وأرسل على ثمود صيحة شديدة أدت إلى ارتجاف الأرض وزلزلتها بهم، فلم ينج منهم أحد، بل هلكوا جميعاً، وأصبحوا في دارهم جاثمين أجساداً ملقاة على الأرض ليس فيها روح ولا حياة.

١٣ - ورأى صالح عليه الصلاة والسلام ما حلَّ بقومه من الهلاك والعذاب فقال في حزن وأسى: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين. فهو لم يترك سبيلاً لدعوتهم، ولم يأل جهداً في نصحهم وإرشادهم، لكنهم رفضوا الاستجابة، وأصروا على التكذيب والكفر، فاستحقوا ذلك المصير البائس الأليم.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفجِّ وتصدر من هذا الفجِّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها، فأخذتهم صيحةٌ أهمدَ الله عز وجل مَن تحتَ أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل. قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: هو أبو رِغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». [1]

وفي رواية عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر قام فخطب فقال: «يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية، فبعث الله لهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ويحتلبون من لبنها مثل

(١) المسند، للإمام أحمد بن حنبل ٢٨/ ١٩٣، رقم ١٣٦٤٤، والمستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري ٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٤٨.

الـذي كانوا يأخذون مـن مائها يوم غبِّها، وتصدر من هذا الفج، فعتـوا عن أمر ربهم فعقروها فوعدهـم الله العـذاب بعد ثلاثة أيام، وكان وعد الله غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشـارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله. فقيل: يا رسـول الله من هو؟ فقال: أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»(١)

وأخرج البخاري ومسـلم من حديث ابن عمر قال: قال رسـول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلـوا عـلى هؤلاء المعذبـين إلا أن تكونوا باكين، فـإن لم تكونوا باكين فـلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم مثل ما أصابهم». (٢)

قوم لوط عليه الصلاة والسلام وموقفهم من دعوته

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ سورة الأعراف (٨٠-٨٤)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات قصة لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه، فقد جاء لوط يدعو قومه إلى الإيمان بالله وتوحيده، وترك ما كانوا فيه من قبيح الأفعال، وسيء العادات، فقد اعتادوا أن يأتي الرجال الفاحشة مع الرجال، وهي جريمة لم يُسبقوا إليها، لكن قوم لوط أصروا على ما هم فيه

(١) المعجم الأوسط للطبراني ١٩/ ٤٠٠، رقم ١١١٢٣.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٦٧، رقم ٤٢٣، باب الصلاة في مواضع الخسف، وصحيح مسلم ٤/ ٢٢٨٥، رقم ٢٩٨٠ باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين.

مـن كفـر وضلال وفواحش وموبقات، ورغم أن لوطاً أقام فيهم مدة طويلة يحذرهم من عاقبة ما هم فيه من الكفر والفجور، لكن القوم ازدادوا طغياناً وظلماً، وتنادوا فيما بينهم لإخراج لوط ومن آمن معه من القرية، لأنهم أناس يتطهرون ويتنزهون عن ممارسـة تلك الفاحشـة الأثيمة، وكانت العاقبة أن الله سبحانه نَجَّى نبيه لوطاً عليه الصلاة والسلام وآله المؤمنين، وأهلك أهل تلك القرية بأن طمس أعينهم[كما جاء في سـورة القمر: ٣٧]، وخسـف بأهل تلك القرية حتى جعل عاليها سافلها[كما جاء في سورة هود: ٨٢-٨٣]، وأنزل عليهم حجارة مسومة من السماء انصبـت عليهم كالمطر الغزير فأهلكتهم جميعاً، وأهلكت معهم امرأة لوط لأنها كفرت كما كفر قومها، ورفضت اتباع لوطٍ والإيمان بما جاء به.

مناسبة الآيات لما قبلها

ذكرت الآيات السابقة قصة صالح عليه الصلاة والسلام مع قومه ثمود، مبينة أنهم كذبوا نبيهـم فأهلكهـم الله بالرجفة، بعد أن نجَّى نبيه والمؤمنين معه، وذكرت هذه الآيات قصة مماثلة هي قصة لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه الذين كذبوا نبيهم ورفضوا دعوته، فأهلكهم الله بثلاثة أصناف من العذاب هي طمس أعينهم، وجعل عالي القرية سافلها، وإمطارها بالحجارة المسـومة، واقتـصرت الآيات في هذه السـورة على ذكـر مطر العذاب، وجاء التفصيل في سـور أُخَر.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشـكل هـذه الآيـات حلقة أخرى في سلسـلة الأقوام التـي كذبت رسـلها، وكفرت بهم وعتـت عـن أمر ربها، فعجل الله لهم العقـاب، وأخذهم بالعذاب، بعـد أن نجَّى نبيه ومن آمن معه، وتؤكد هذه الحادثة من جديد منهج الأمم في الكفر والتكذيب، وسنة الله التي لا تتخلف في نجاة المؤمنين ونصرتهم، وهلاك الظالمين وأخذهم بالعذاب.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - لوط عليه الصلاة والسلام نبي كريم، بعثه الله إلى أمة تسكن منطقة سدوم من أرض فلسطين، إلى الجنوب الغربي من البحر الميت، وقد دعاهم إلى توحيد الله وعبادته والبعد عن الشرك به، كما دعاهم إلى الترفع عما كانوا فيه من الخبائث والرذائل، فقد كان الرجال يفعلون الفاحشة مع الرجال، وهي جريمةٌ لم يُسبقوا إليها.

٢ - هذه الفاحشة لم يكن لهم بها حاجة، ولكنهم يفعلونها على سبيل تلبية شهواتهم، وطاعة رغباتهم، وكأنه لا غرض لهم من إتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة، ويتركون الزواج بالنساء وإتيانهن، مع أنهن محل لقضاء الشهوة وموضع لطلب اللذة، وفي هذا ما فيه من الفساد والاعتداء على الفطرة ومسخها، والتهديد بدمار المجتمعات وانهيارها.

٣ - كان حقاً على هؤلاء القوم أن يطيعوا لوطاً ويؤمنوا به ويستجيبوا لنصحه ووعظه، فهم يعرفون حرصه عليهم ونصحه لهم، ورغبته في صلاح أمورهم، لكنهم أطاعوا شياطينهم واتبعوا أهواءهم، ولم يكن ردهم على لوط إلا بالدعوة إلى إخراجه هو والذين آمنوا معه، وطردهم خارج تلك القرية، بتهمة أنهم أناس يتطهرون.

٤ - حين يكون التطهر تهمة، والتنزُّه عن الوقوع في هذه الفاحشة جريمة فلنا أن نتصور أي فساد كان يعيشه هؤلاء القوم الذين مُسخت نفوسهم وفسدت عقولهم، وانقلبت عندهم الموازين حتى صاروا يرون الباطل حقاً، والشرَّ خيراً.

٥ - وحين وصل الحال بهؤلاء القوم إلى درجة يتعذر معها الإصلاح، وتتعطل سبل التغيير إلى الأفضل يكون الحل الوحيد أن ينزل العذاب بهم، ليطهر الأرض من إجرامهم وفسادهم.

٦ - نجّى الله سبحانه نبيه لوطاً وأهله المؤمنين به، واستثنى امرأته من الأهل لكونها لم تؤمن به وأنزل العذاب على قوم لوط، وكان على ثلاث مراحل، أولاها: طمس أعينهم فلا يرون

شيئاً، والثانية جعلُ عاليها سافلها، حيث انقلبت بهم بلادهم ودورهم، ولذلك سُميت بالمؤتفكات، والثالثة: إنزال المطر المصحوب بالحجارة المسومة، فما تصيب أحداً منهم إلا قتلته.

٧- وهكذا يرينا الله عاقبة المجرمين الذين كذبوا رسولهم، وجحدوا بآيات ربهم. وفي هذا الخطاب: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ دعوة للناس كي يعتبروا بمصارع الأمم وأسباب هلاكها.

من الأحاديث الشريفة

عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به». (١) قال الألباني: حسن صحيح. وعنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله من غيَّرَ تخومَ الأرض، لعن الله من تولَّى غير مواليه، لعن الله من كمَّهَ أعمى عن الطريق، لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من وقع على بهيمة، لعن الله من عقَّ والديه، لعن الله من عمِل عمَل قوم لوط». قالها ثلاثاً. (٢)

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥٦٤، رقم ٤٤٦٢، وسنن الترمذي ٣/ ١٢٤، رقم ١٤٥٦.

(٢) مسند أحمد ٦/ ٢٩٨، رقم ٢٧٦٥.

مدين وموقفهم من دعوة شعيب عليه الصلاة والسلام

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (الأعراف ٨٥-٩٣)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه أرسل شعيباً عليه الصلاة والسلام رسولاً إلى قومه، يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، وترك عبادة الأصنام، وترك ما كانوا عليه من معاملات مالية فاسدة كالتطفيف في الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم، وأكل أموالهم ظلماً، والإفساد في الأرض، والصد عن سبيل الله[1].

---

(١) قال النيسابوري في تفسيره ٣/ ٤٧٠: "كانوا يجلسون على الطرق والمراصد.. يخوّفون من آمن بشعيب ويقولون إنه كذاب؛ لا يفتنكم عن دينكم، أو كانوا يقطعون الطرق،.. وقيل: إن الصراط مجاز عن الدين =

كان هـؤلاء القوم يسـكنون في شـمال الجزيـرة العربية عـلى مقربة من موقـع مدينة تبوك، وقام شـعيب يدعو قومه إلى الإسـلام، ويذكِّرُهم بنعم الله الكثيرة التي يتقلبون فيها، فقد كانوا قلـةً فكثَّرهـم الله، ورزقهم الأموال والبنـين، وأغدق عليهم الخيرات، كـما حذَّرهم من عقاب الله وبأسـه الذي لا بد أن ينزل بالعصاة المفسـدين، كما نزل بالأمم المكذبة من قبلهم، واسـتمر شـعيب يدعـو قومه إلى الحـق والهدى، ويحذرهم من البغي والفسـاد، فاسـتجابت لـه قلة من النـاس، وأصرَّ أكثر قومه على الكفر والعصيان، وأخذوا يتوعدون شـعيباً وأتباعه المؤمنين بأن يخرجوهم من قريتهم، إن لم يتركوا هذا الدين، ويرجعوا إلى الكفر.[1] لكنَّ شعيباً عليه الصلاة والسـلام والمؤمنـين معه ثبتوا على الإيـمان، في وجه هؤلاء الظالمين، وبيَّنَ لهم شـعيب أن أعظم الافـتراء يتمثـل في الردة عن الدين الحق، والعودة إلى ملة الكفر، فكيف يعود المسـلم إلى الكفر بعد إذ نجاه الله منه؟

وازداد الكفـرة عنـاداً وإصراراً عـلى باطلهم، وأخذوا يحاربون شـعيباً ومـن معه، بدعوة النـاس إلى رفض هذا الدين، والتمسـك بما هم عليه من عـوج وضلال، قائلين لهم: لئن اتبعتم شـعيباً إنكم إذاً لخاسرون، فلما تطاول عليهم الزمان في رفضهم لدعوة نبيهم، وإصرارهم على كفرهم، لم يبق لهم عند الله حجة ولا عذر، عندئذ نجَّى الله تعالى نبيه شـعيباً والذين آمنوا معه، وأنـزل عذابه بأولئك الظالمين المكذبين، حيث أظلتهم سـحابةٌ سـوداء بعد حر شـديد أصابهم فلـما اجتمعوا في ظل تلك السـحابة رجفت بهم فأهلكتهم ولم تُبق منهـم أحداً.[2] لقد خسروا أنفسهم، ودُمّرت بلادهم، وهلكوا لأنهم كذبوا رسولهم وعصوا ربهم. ونظر شعيب إلى ما حلَّ بقومـه من النـكال والدمار فقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسـالاتِ ربكـم ونصحت لكم، فكيف آسى على قوم كافرين؟

= أي لا تقعدوا على طريق الدين ومنهاج الحق لأجل أن تمنعوا الناس عن قبوله".

(١) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٦٢.

(٢) معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٢٥٨.

مناسبة الآيات لما قبلها

بعد أن ذكرت الآيات السابقة قصة قوم لوط الذين كذبوا رسولهم، ورفضوا دعوته، وأصروا على ما هم فيه من كفر وفساد، وما حدث لهم من نزول العذاب المهلك المستأصل جاءت هذه الآيات تقص علينا قصة شعيب عليه الصلاة والسلام مع قومه الذين كان حالهم كحال من سبقهم، إذ لم يعتبروا ولم يتعظوا بل كذبوا وكفروا، واستمروا على ضلالهم وظلمهم وتعاملاتهم الاقتصادية الفاسدة حتى نزل بهم العذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشكل هذه الآيات حلقة جديدة في سلسلة الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم، وكفروا بربهم واتبعوا سبيل الشيطان، فكانت عاقبتهم الهلاك والنكال، بعد أن نجَّى الله نبيه والمؤمنين وهكذا تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - شعيب عليه الصلاة والسلام نبي كريم، أرسله الله إلى قومه مدين، ومدين اسم قبيلة، وقيل اسم بلد، وقد أُرسل شعيب إلى مدين وأصحاب الأيكة، كما في سور أخرى، (١) فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه، وترك عبادة الأصنام، وأثبت لهم صدق رسالته بمعجزة بيِّنة أظهرها لهم، ولم يبين القرآن هذه المعجزة.

٢ - كما دعاهم شعيب إلى إصلاح كسبهم ومعاشهم، وتجنب الكسب الحرام وكانوا يطففون ويتلاعبون بالمكاييل والموازين، ويأكلون أموال الناس بالباطل، فأمرهم بإيفاء الكيل والميزان وإعطاء الناس حقوقهم، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم، والبخس: النقص ويكون بالتعييب للسلعة أو التزهيد فيها أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وفي هذا إشارة إلى أهمية الإصلاح المالي والاقتصادي

(١) سورة الحجر: ٧٨، والشعراء: ١٧٦، وص: ١٣، وق: ١٤.

وأثره في صلاح أحوال الناس ومعايشهم.

٣ - كان قوم شعيب يبخسون الناس في الأشياء التي يتداولونها بيعاً وشراءً، فنهاهم شعيب عن ذلك، وحذرهم من الإفساد في الأرض، وفي ذلك إشارة إلى أن الكسب الحرام من تطفيف وغش واحتيال.. هو من الإفساد في الأرض، لما فيه من الإخلال بمعايش الناس وحرمانهم حقوقهم.

٤ - كان قوم شعيب يقعدون في الطرقات المفضية إلى شُعيب عليه الصلاة والسلام، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه، كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ، وكانوا يمنعون الناس من اتباع شعيب والدخول في دينه، فنهاهم عن ذلك كما نهاهم عن قطع الطريق، وسلب المال من العابرين، فقد كانوا يسلبون أموال الناس وأمتعتهم، ويأخذون الجباية في الطرق من أموال الناس. [1]

٥ - ذكَّرَ شعيب قومه بأنعم الله عليهم فقال لهم: واذكروا إذ كنتم قليلاً في عددكم، فكثركم بالنسل والتوالد حتى صار عددكم كبيراً. وفي هذا إشارة إلى أن الكثرة نعمة عظيمة لما فيها من المهابة والعزة والقوة.

٦ - وحذّر قومه من الفساد، لئلا تصيبهم العقوبات التي حلّت بالمفسدين من قبلهم، وفي هذا دليل على أن الفساد يجلب الدمار للبلاد ويؤدي إلى هلاك العباد.

٧ - وخوّف قومه مما هم فيه من التكذيب، وهددهم بأنهم إذا ثبتوا على ما هم فيه فلينتظروا حتى يحكم الله بينه وبينهم، فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين.

٨ - كان ردّ الزعماء المستكبرين أن يتوعدوا شعيباً والمؤمنين، فهم لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك إلى توعده ومن آمن معه بالإخراج من

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٦١.

قريتهم، والطرد من بلادهم إن لم يرجعوا عن الإيمان إلى ملة الكفر، وكأنهم يقولون: إن قريتنا هذه لا يشاركنا في سكناها من خالف ديننا وترك ملتنا.

٩ - وهكذا يلجأ الكفرة والظالمون إلى التهديد والوعيد حين يعجزون ويُفحَمون، وهذا هو منهجهم دائماً في مواجهة الحق.

١٠ - يبين شعيب عليه الصلاة والسلام أن الرجوع عن الإيمان يعني افتراء الكذب على الله تعالى، وأن الدخول في الإيمان والنجاة من الكفر نعمة عظيمة. ولكن أنّى لهؤلاء الكفرة أن يدركوا تلك النعمة وهم لم يتذوقوها.

١١ - المسلم يتوكل على الله تعالى في كل شؤونه وأحواله، ويستعين به، ويصبر لأمره، ويدعو الله أن يثبته وينصره.

١٢ - أخذ المشركون من قوم شعيب يحاربون دعوته ويصدون عن دينه، مستخدمين إمكاناتهم الإعلامية، فأخذوا يحذّرون الناس من اتباعه قائلين لهم: والله لئن دخلتم في دين شعيب وتركتم دينكم ستكونون خاسرين هالكين، وإذا اتبعتم شعيباً، وإذا طبقتم تعاليمه في إيفاء الكيل والوزن وترك التطفيف الذي تعاملون الناس به ستخسرون أموالكم. وفي هذا إشارة ظاهرة إلى شدة تمسك هؤلاء الكفار بباطلهم، وحرصهم عليه، وتواصيهم برفض الإيمان، وعداوة نبي الله والمؤمنين.

١٣ - وحين وصل الحال بهؤلاء إلى هذه الدرجة من الكفر والضلال والعداوة لدين الله استحقوا أن ينزل بهم عذاب الله المزلزل، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فجاءهم عذاب يوم الظلة، حيث أظلتهم سحابةٌ سوداء بعد حر شديد أصابهم، فلما اجتمعوا في ظل تلك السحابة رجفت بهم فأهلكتهم ولم تُبق منهم أحداً، [١] وفي لحظة واحدة صاروا جميعاً هامدين أمواتاً بلا حراك، قد التصقت أجسادهم بالأرض.

(١) معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٢٥٨.

١٤ - وحين شاهد شعيب عليه الصلاة والسلام نزول العذاب بقومه قال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي التي أرسلني بها إليكم، ونصحت لكم ببيان ما فيه سلامة دينكم ودنياكم وحرصت على هدايتكم فلم تستجيبوا، وعرَّفتكم طريق الخير والهدى فلم تطيعوني فكيف أحزن على قوم كافرين بالله، مصرين على الباطل والضلال؟

مما روي في تفسير هذه الآيات

عن ابن عباس: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ قال كانوا يجلسون في الطريق فيخبرون من أتى عليهم أن شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم. [١] وأخرج الحاكم عن وهب بن منبه، قال: إن الله بعث شعيباً إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة، فكانت الأيكة من الشجر الملتف، وكانوا أهل كفر بالله وبخس للناس في المكاييل والموازين، وإفساد لأموالهم، وكان الله تعالى وسع عليهم في الرزق، وبسط لهم في العيش، استدراجا منه لهم، مع كفرهم به، فقال لهم شعيب: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط» فكان من قول شعيب لقومه وجواب قومه له ما قد ذكر الله في كتابه »[٢] وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيباً قال: «ذاك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه فيما يريدهم به، فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة. [٣]

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٢/ ٥٥٧، رقم ١٤٨٤٥.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٩/ ٣٣٢، رقم ٤٠٣٦، ورقم ٤٠٧٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٢/ ٥٦٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١١٣، رقم ١٦٧٠٥.

سنة الله في المكذبين

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ
بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن
كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ
﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ
أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ
وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾
سورة الأعراف (٩٤-١٠٢)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات الكريمة سنة ربانية ثابتة لا تتغير، فالنبي يدعو قومه إلى الإيمان ونبذ الشرك وترك المعاصي والظلم، والناس أمام هذه الدعوة فريقان، فمنهم قلة تستجيب وتؤمن وتنصر النبي، والكثرة تبقى على كفرها وضلالها، ولكن الله سبحانه حليم كريم، لا يعاجل الناس بالعقوبة، بل يمهلهم ويؤخرهم لعلهم يرجعون ويتوبون، وفي أثناء هذه المهلة يأخذهم بالبأساء والضراء، فيصيبهم بالقحط تارة وبالجوع تارة أُخرى، وبالكوارث حيناً وبالأمراض حيناً آخر، لعلَّهُم يَضَّرَّعون ويردون الأمر إلى الله سبحانه، ولكنهم - في العادة - لا يتضرعون ولا ينسبون إلى الله شيئاً من ذلك، فيبدل الله مكان السيئة الحسنة، بمعنى أنه يمدهم بالنعم من الخصب وإدرار الرزق وكثرة المال، حتى يكثر عددهم، وتزيد ثرواتهم وأموالهم، ويأخذوا حظهم الوافر من الحياة.. فيظنون أنهم حصَّلوا ذلك بعملهم وجهدهم، فهم في كلا الحالين لا يلتفتون إلى قدرة الله تعالى، ويستمر بهم الحال حتى يرسخ في أذهانهم أن ما يصيبهم من

خير وشر، ومن سراء وضراء ما هو إلا أمور طبيعية كانت تصيب آباءهم من قبل، وعندئذ يصل هؤلاء القوم إلى إنكار قدرة الله تعالى وعظمته، ويغفلون عن تدبيره وحكمته، فيأخذهم بالعذاب بغتة وهم لا يشعرون. (١)

ثم تبين الآيات سنة أخرى من السنن الربانية، تتمثل في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٩٦)

وتبين هذه السنَّة أن البركة في الرزق إنما ينزلها الله تعالى للناس حين يؤمنون ويتقون، فمن أراد رغد العيش والحياة الطيبة الكريمة فليؤمن وليطع الله ورسوله، ولكن الناس غافلون عن هذه السنة أيضاً، يرون الأرزاق الوفيرة عند أهل الكفر والضلال فيغترون بذلك، دون أن يفرقوا بين فتح البركات وفتح أبواب كل شيء، فالله سبحانه يفتح على أهل الإيمان بركات السماء والأرض، أما أهل الكفر فقد يفتح عليهم أبواب كل شيء، فيكثر عندهم المال والرزق ويكثر عندهم أيضاً المرض والجوع والقلق والهمُّ، فليست كثرة المال دليلاً على البركة، فقد تكون البركة في الشيء القليل، لكنه يفي بالغرض ويعيش أهله به سعداء، وقد يكون أهل الباطل يملكون المال الكثير والرزق الوفير، لكنهم يعيشون بؤساً وشقاءً.

ثم تبين الآيات أن أهل القرى، والمجتمعات البشرية كفروا وكذبوا، فحُرموا البركة في الرزق، ثم جاءهم العذاب فأُهلكوا وأبيدوا. فهل يأمن أهل القرى الباقية أن يأتيهم بأس الله وعذابه حال نومهم وغفلتهم؟ وهل يأمنون أن يأتيهم بأس الله في ضحوة النهار وهم في أسواقهم وتجارتهم ومزارعهم..؟ وكيف يأمنون مكر الله، ويغفلون عن الاعتبار بما جرى للأمم السابقة؟

وكيف يأمنون مكر الله وقد سكنوا في القرى التي سكنتها قبلهم أمم ذاقت بأس الله

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٢٥٩ وما بعدها.

وعذابه؟ والله قادرٌ في كل وقت أن يعذبهم كما عذب الذين من قبلهم.

إن أهل القرى أجدر وأحق أن يعتبروا ويتعظوا ويعودوا إلى الإيمان واتباع رسلهم، ولكن المشكلة أن هؤلاء اغتروا وغفلوا عما أصاب الأمم السابقة، وطُبع على قلوبهم فلا يتفكرون ولا يتعظون، لقد نسوا عهد الله وميثاقه، وانحرفوا عن فطرة الإيمان، واتبعوا عَدُوَّهم الشيطان، ونسوا التحذير الذي وجهه الله إليهم مرات ومرات. فلا عهد لهم ولا إيمان.

ولقد قص الله تعالى على رسوله ﷺ طرفاً من أخبار تلك القُرى، تسلية له عما يلقاه من أذى المشركين، وإعلاماً له بحقيقة ما جرى، وتثبيتاً له على منهج الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في الصبر والثبات على الحق.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة ما كان من قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وكيف واجه هؤلاء الأقوام أنبياءهم بالكفر والتكذيب والتحدي والإنكار وجابهوهم بالإيذاء والطرد والإبعاد، وكانت العاقبة أن نجّى الله أنبياءه وأولياءه، وكتب لهم النصر وحُسن العاقبة، وأهلك المكذبين المعاندين، ثم جاءت هذه الآيات لتقرير سنة الله تعالى في إرسال الرسل، وابتلاء أهل القرى بالسراء والضراء، وبيان أن البركة تكون مع الإيمان والحديث عن غفلة عامة الناس في مجتمعاتهم وبلادهم عن سنن الله تعالى، وأمنهم من مكره، مع أنهم يرون المثلات شاخصة في آثار الهالكين المعذبين من الأمم التي كذبت وكفرت، لقد كان هؤلاء أجدر الناس أن يؤمنوا ويعودوا إلى ربهم، لكنهم غفلوا ونسوا عهد الله إليهم، واتبعوا الشيطان فاستحقوا أن يحل بهم العذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

هذه الآيات ترسم المعالم التي تحدد مصير الأمم، وتبين سنة الله التي لا تتخلف، فهو لا يأخذ الأمم بالعذاب إلا بعد أن يكذبوا رسلهم، ويثبتوا على كفرهم وضلالهم، ولو أنهم استجابوا لنداء

الإيمان، ودعوة الرسل لعاشوا حياة كريمة حافلةً بالبركات والخيرات، وجدير بالأمم اللاحقة أن تتعظ بمصائر الأمم الهالكة، حتى تتنكب سبيلها، فتنجو من مصيرها المحتوم.

ومنذ مطلع السورة والموضوع يدور حول دعوة الناس إلى الإيمان، وتحذيرهم من الكفر وتخويفهم من اتباع الشيطان الذي أضل أُمماً عديدة وجبلّاً كثيراً.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - الله سبحانه لا يعذب أمة من الأمم إلا بعد أن يرسل إليها رسولاً، يدعو إلى الإيمان ويبين الحق، فإن أطاعوه واتبعوه عاشوا حياة طيبة، وإذا كذبوا حاق بهم العذاب، وقد كانت عامة الأمم على التكذيب والكفر بما جاءهم من الحق، ومع ذلك لم يعجل الله بإنزال العذاب عليهم، بل أعطاهم المهلة، وابتلاهم بالبأساء والضراء، لعلهم يتضرعون إلى الله، ويرجعون إليه بالتوبة والإنابة.

٢ - بعد أن تتوالى الابتلاءات بالسراء والضراء يصير المشركون إلى الاعتقاد بأن هذا الذي مسَّهم من البأساء والضراء، ثم من الرخاء والخصب بعده هو أمر وقع لآبائهم مثله فمسهم من البأساء والضراء ما مس هؤلاء، ومن النعمة والخير ما ناله هؤلاء، فهذه العادة جارية في السلف والخلف، وهكذا شأن الزمان في تقلبه من شدة إلى رخاء، فكأنهم نسبوا الشدة والرخاء إلى فعل الزمان، وليس لله سبحانه وفي هذا من شدة عنادهم، وقوة تمردهم وعتوهم ما لا يخفى.

٣ - يمد الله سبحانه المكذبين بالنعم إملاءً واستدراجاً، فيكثر عددهم، وتزداد أموالهم، وتربح تجارتهم، وتُخصب أرضهم، فإذا وصلوا إلى ذلك ظنوا أنهم على حق، بدليل أن النعم تتوالى عليهم، ولم يلتفتوا إلى أن هذا استدراج بالنعم، وأنهم عما قريب سيهلكون.

٤ - يأتي العذاب بغتة، والناس عنه غافلون، فهم في حياتهم وأعمالهم، لا يفكرون إلا في أسواقهم وأعمالهم ومعاشهم، وعندما يحل بهم العذاب ويأخذهم الهول يتذكرون أنهم

كانوا ظالمين، ولكن بعد أن مضى وقت الندم، ولم يعد لديهم مجال للتوبة والاعتذار.

٥ - البركة في الرزق، والرغد في العيش، والحياة الطيبة الكريمة لا ترتبط بكثرة المال والمتاع ولكنها ترتبط بالإيمان والتقوى وتحقيق معاني الهداية في النفوس، وتطبيقها على أرض الواقع. وفي المقابل فإن الأخذ بالعذاب ثمرةٌ للكفر والتكذيب.

٦ - الأمن من مكر الله جريمة عظيمة، لما فيها من الدلالة على نسيان الآخرة والإقبال على الدنيا، وفي هذا دعوة للناس أن لا يأمنوا مكر الله، وأن يكونوا دائماً على حذر واستعداد للقاء الله سبحانه.

٧ - على الذين يسكنون القرى، ويرثون الديار ممن سبقوهم أن يعتبروا بمن سكنها قبلهم كيف كانوا يعيشون في هذه القرى؟ وأين صاروا بعد أن غيبهم الثرى؟ وماذا فعلوا حتى استحقوا أن يأخذهم الله بعذابه؟ وكما أصابهم الله بالعذاب فإنه قادر على أن يعذب من بعدهم، إذا ساروا على طريقتهم في الكفر والضلال.

٨ - هذه القصص التي يقصها الله تعالى على رسوله ﷺ، مبيناً فيها طرفاً من أنباء الأمم السابقة، قوم نوح وعاد وثمود.. فيها تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، وتثبيت لقلوبهم، ودعوة إلى الموعظة والاعتبار.

٩ - وهؤلاء الذين قص الله على رسوله من أنبائهم ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بل ظلوا مستمرين على الكفر، متشبثين بالضلال، ولم ينفعهم مجيء الرسل، بل حالهم عند مجيء الرسل كحالهم قبله، ومعنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل أنهم كانوا في الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل وإنزال الكتب.

١٠ - لم يكن لأكثر أهل هذه القرى عهدٌ يحافظون عليه، ويتمسكون به، بل دأبهم نقض العهود في كل حال، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا ينفعهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولا ترهيب.

موقف فرعون وقومه من دعوة موسى عليه الصلاة والسلام

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ
بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا
هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ
عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ
أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾
فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ
﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ **سورة الأعراف (١٠٣-١٢٦)**

التفسير الإجمالي للآيات

أرسل الله سبحانه رسوله موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه، يدعوهم إلى أمرين هما: الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وإطلاق بني إسرائيل ليسير بهم موسى إلى الأرض المقدسة، وكان فرعون يستضعفهم ويستذِلُّهم ويذيقهم سوء العذاب.

جاء موسى إلى فرعون وبدأ يعرض عليه دعوته، مبيناً أنه رسول من الله رب العالمين، وأنه حريص أن لا يقول إلا الحق، وأن يبلغ ما أوحى الله إليه، وأكد دعوته بأن الله سبحانه قد أعطاه

آيـة بينة تدل على صدقه، وأنه مرسـل من عنـد الله تعالى، وطلب من فرعون أن يؤمن بالله تعالى وأن يأذن لبني إسرائيل بالخروج معه.

لكن فرعون سـارع إلى مطالبة موسـى عليه الصلاة والسـلام بإظهار الآية التي جاء بها، وقـال له بتحـدٍ واسـتكبار: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾. كان مع موسى عليه الصلاة والسلام آيتان هما: العصا واليد، فبادر موسى إلى إلقاء العصا التي يحملها في يده، وإذا بها تنقلب ثُعباناً مبيناً ضخماً مخيفاً، وأدخل يده في جيب عنقه ثم نزعها فإذا هي بيضاء مضيئة كالشمس، وحين رأى قوم فرعون هاتين الآيتين بادروا إلى اتهام موسى بأنه ساحر، جاء يريد إخراج فرعون وقومه من بلادهم، بما عنده من سحر. وردّد فرعون هذا القول الذي يُحب أن يسـمعه من قومه، وقال لهم: ماذا تطلبون أن نصنع بشـأن هذا السـاحر؟ فأشـاروا عليه أن يؤخر موسى وأخاه هارون، ويرسل الجند إلى المدن والبلدان ليحضروا السحرة العالمين بفنون السحر، ليواجهوا موسى ويتغلبوا عليه، ويبطلوا ما جاء به.

وجـاء السـحرة طامعـين في عطاء فرعـون وجوائزه، وقالوا له: هل سـيكون لنـا أجرٌ إذا غلبنا موسـى وظهرنا عليه؟ فوعدهم أن يعطيهم عطاءً كثيراً، وأن يجعلهم من جلسائه المقربين عنـده، وفرِحَ السـحرة بهذا الوعد، واسـتعدوا ليـوم اللقاء، فلما قابلوا موسـى وأخاه في ميدان واسـع، بحضور فرعون ووزرائه ورجال حاشيته وجنده، قالوا لموسى بثقة واعتزاز: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾، فاختـار موسـى أن يُلقوا حبالهـم وعصيهم أوّلاً، فألقوها وسـحروا أعـين الناس، وأخافوا الحاضرين الذين صاروا يرون الميـدان مليئاً بالحيات العظيمة المخيفة، وفي تلك اللحظات التي بدا فيها السحرة مستبشرين بالفوز، وبدا فيها فرعون مفتخراً بما يراه من قدرة سَحَرَتِه، أوحى الله سـبحانه إلى موسـى يأمره بإلقاء عصـاه، فألقاها فانقلبت حالاً إلى حية عظيمة أخذت تلتقم حبال السحرة وعصيَّهُم، حتى لم تترك منها شيئاً.

ظهـر الحـق وانتصر، وانهزم الباطل واندحر، وعرف السـحرةُ أن ما جاء به موسـى ليس سـحراً، بل هو معجزة ربانية، وآية عظيمة دالة على أنه رسـول من رب العالمين، فسـارعوا إلى

السجود على الأرض، وأعلنوا إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون.

واغتاظ فرعون لما رأى من هزيمة سحرته، وبطلان سحرهم، وغاظه أكثر أن يرى هؤلاء السحرة وقد سجدوا على الأرض، معترفين لموسى وهارون بالرسالة، معلنين إيمانهم بالله فسارع فرعون إلى اتهامهم بالتآمر والكيد، وأنهم دبرّوا هذا الأمر، وتآمروا مع موسى، ليُخرجوا آل فرعون من بلادهم، واستناداً إلى هذه التهمة الجائرة أخذ فرعون يتوعد السحرة بالعذاب الشديد، فقال لهم: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾. فردَّ عليه السحرة بثبات المؤمنين، مؤكدين أنهم غير خائفين من تهديده ووعيده، فالموت غاية كل حي، وإلى الله ينقلب العباد. ثم بينوا له أنه لم يكن غاضباً عليهم قبل أن يؤمنوا، ولكن لما رآهم قد آمنوا بالحق الذي رأوه نقم منهم، وهو الآن يريد أن ينفذ غيظه فيهم بعد أن ذاق ذل الهزيمة.

وأمام تهديد فرعون ووعيده توجّه السحرة إلى الله تعالى بقلوب مؤمنة خاشعة، يدعونه أن يرزقهم الصبر على ما ينتظرهم من البلاء، وأن يتوفاهم على الإسلام.

مناسبة الآيات لما قبلها

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن قصص كثير من الأمم المكذبة، جاء الحديث هنا عن فرعون وملئه، وهؤلاء القوم من أشد الناس فساداً، وأعظمهم كفراً وضلالاً، ففرعون قد ادعى الألوهية، ودعا الناس إلى عبادته من دون الله.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تحدثت هذه الآيات عن تكذيب فرعون وقومه بما جاءهم به رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، هذا التكذيب النابع من قلوب أضلها الهوى، وأزلها الشيطان. وتشكل هذه القصة حلقة من حلقات سلسلة الأمم التي واجهت رسلها بالتكذيب والكفر، وأصرَّت على التخبط في ظلمات الجاهلية، وبهذه القصة تبلغ السورة ذروة الحديث عن المكذبين السابقين لتنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بني إسرائيل وما كان منهم.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كان إرسال موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه يشكل مرحلة حاسمة في مسيرة الأمم عبر التاريخ البشري، ومواجهتها لرسلها، لأن فرعون مَلِكٌ عظيم، يحكم بلاداً واسعة، وعنده من الجند والسلاح والتمكين في الأرض ما ليس لغيره، وقد ادعى الألوهية، ودعا قومه إلى عبادته من دون الله تعالى.

٢ - فرعون لقب لكل مَن ملكَ أرض مصر في تلك الحقبة، وملأُ فرعون أشراف قومه، وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم لأن من عداهم أتباعٌ لهم.

٣ - حين عرض موسى دعوته على فرعون أخبره بأنه مرسل من الله إليه، ليكون ذلك أدعى إلى قبول ما جاء به، ثم أعلمه بأن معه الدليل على صدق رسالته.

٤ - تضمنت رسالة موسى أمرين هما: دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان وتوحيد الله تعالى وإطلاق بني إسرائيل ليسير بهم موسى إلى الأرض المقدسة. وقد كانوا مستعبدين مستذلِّين عند فرعون وقومه.

٥ - كان الواجب على فرعون حين رأى الآيات التي أظهرها موسى عليه الصلاة والسلام أن يؤمن بالله ويذعن للحق، لكنه ازداد طغياناً وكفراً، وأعانه الملأ من قومه على ذلك حين بادروه بالقول إن هذا الذي جاء به موسى سحر، وإن غايته أن يخرجنا من أرضنا وبلادنا.

٦ - كانت بطانة فرعون بطانة فاسدة، فقد زينوا له الباطل، وحرضوه على موسى وهارون وحذروه من الاستجابة، وأخذوا يتهمون أنبياء الله بالسحر، ويشيرون على فرعون أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بمواجهة موسى وهارون.

٧ - كان السحر منتشراً في مصر في طول البلاد وعرضها، وهذا دليل جهل وتخلف وضعف ولو كان فرعون راغباً في إصلاح رعيته لوجههم إلى العلم النافع، ولصرفهم عن الاشتغال

بالسحر والشعوذة.

٨ - وعد فرعون السحرة أن يعطيهم الأعطيات والجوائز، كما وعدهم أن يكونوا من المقربين عنده، وكل هذه الوعود من أجل أن يغلبوا موسى وهارون، لكنه لما رأى السحرة قد غُلبوا أخذ يتوعدهم بأشد أصناف العذاب.

٩ - منهج الطغاة أن يسارعوا إلى اتهام الأنبياء والدعاة والمؤمنين، ليتمكنوا من إقناع الناس بأن هؤلاء طامعون في السلطة والسيطرة، وقد تمثل هذا في اتهام فرعون وملئه لموسى وهارون بتهمة السحر وبتهمة السعي إلى إخراج فرعون وقومه من بلادهم، واتهام فرعون للسحرة - بعد أن آمنوا - بأنهم مكروا وخططوا لإخراجه وقومه من مصر.

١٠ - للسحر تأثير شديد على الناس، خصوصاً إذا أتقن السحرة صنعتهم، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

١١ - كان فرعون ينتظر أن تسفر المواجهة عن نصرٍ حاسم يهنئه الناس به، ويزدادون له طاعة وخضوعاً، فلما فاجأته الهزيمة ألقى بالمسؤولية على السحرة، فلما رآهم يسجدون ويعلنون إيمانهم أنكر عليهم أنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم. ولم يدر أن الإيمان حين يخالط القلوب لا ينتظر ولا يستأذن. وهل كان فرعون سيأذن للسحرة لو أنهم استأذنوه؟

١٢ - جاء السحرة طامعين بما عند فرعون من العطاء والجزاء، فلما خالط الإيمان قلوبهم كان همهم أن يُختم لهم بخير، وأن يموتوا على الإيمان، وحين هددهم فرعون بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم في جذوع النخل، لم يبالوا بهذا التهديد، وهكذا يعيد الإيمانُ صناعة النفوس المؤمنة، وإخراجها بالصورة التي تتناسب مع الإيمان.

البطانة الفاسدة

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (سورة الأعراف ١٢٧-١٢٩)

التفسير الإجمالي للآيات

كان حول فرعون جماعة من المفسدين المستكبرين، يحرصون على إغراء فرعون ببني إسرائيل، وتحريضه على قتلهم وإلحاق الأذى بهم، فقالوا له على سبيل الإنكار: أتترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض بإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل؟ والمراد بالأرض هنا أرض مصر. وذكر المفسرون أقوالاً في معنى (ويذرك وآلهتك) لكون فرعون كان يدعى الربوبية كما في قوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ وقوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فكيف يقول له قومه: ويذرك وآلهتك؟ فقيل: معنى وآلهتك: طاعتك، وقيل: معناه وعبادتك، وقيل: كان له أصنام يعبدُها قومُه تقرباً إليه فنسبت إليه، وقيل: كان يعبد الشمس. [1] فقال فرعون مجيباً لهم ومثبتاً لقلوبهم على الكفر: سنقتل أبناءهم، ونستحي نساءهم، أي نتركهن في الحياة، ولم يقل: سنقتل موسى لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه، ووعد قومه أن تكون لهم الغلبة على موسى وقومه فقال: وإنا فوقهم قاهرون، فنحن ظاهرون عليهم بالقهر والغلبة، وهم تحت قهرنا وبين أيدينا ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه.

وأدرك قوم موسى أن الأيام القادمة تحمل لهم كثيراً من البلاء والإيذاء على يد فرعون

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣١، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ٧٨.

وملئه، وأن فرعون سينفذ تهديده، فقال لهم موسى مثبتاً ومواسياً: استعينوا بالله واصبروا، ولا تجزعوا أمام هذا التهديد، فالله سبحانه بيده كل شيء، وهو القادر على كل شيء، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده. وهذا وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه، وأن الله سيورثهم أرضهم وديارهم، ثم بشرهم بأن العاقبة المحمودة للمتقين.[1]

عندئذ قال بنو إسرائيل لموسى: أوذينا من قبل أن تأتينا رسولاً، وذلك بما صنع فرعون بنا من قتلِ أبنائنا واستحياء نسائنا، وبتسخيرنا في الأعمال الشاقة، وأوذينا من بعد ما جئتنا رسولاً بقتل أبنائنا، وبما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا، فوعدهم موسى داعياً أن يهلك الله عدوهم فرعون وقومه، ويستخلفهم في الأرض. وقد حقق الله رجاءه فأهلك فرعون وقومه بالغرق، وأنجى بني إسرائيل، وأورثهم الأرض، ومكن لهم فيها.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن دعوة موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون وقومه إلى الإيمان، وموقف فرعون وقومه واستكبارهم وتكذيبهم، وتحدثت الآيات هنا عما كان يهمُّ به فرعون وقومه من التشديد على بني إسرائيل والتنكيل بهم، كما بينت خوف بني إسرائيل وشكواهم مما لحق بهم ومما ينتظرهم في الأيام القادمة، وكيف طمأنهم موسى ووعدهم بنصر الله تعالى.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشير هذه الآيات إلى عتو قوم فرعون واستكبارهم، حيث لم يكتفوا بالكفر والتكذيب، بل بدأوا يُحَرِّضون فرعون على بني إسرائيل، ويدعونه إلى قتلهم والخلاص منهم، وهكذا تتجلى عداوة الكفار للمؤمنين، فتذكّرنا بما جاء في أول السورة من عداوة الشيطان للإنسان.

---

(١) انظر: أنوار التنزيل، وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي ٢/ ٣٠٥، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣١.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - حين يكون حول الحاكم بطانة فاسدة فإن صلاحه يصبح متعذراً، لأنه لو فكّر في الصلاح لمنعته بطانته، وزينت له الباطل، وجرّأته على الضلال.

٢ - توعّد فرعون أن يُقتِّل أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، ومع أنه كان يفعل ذلك سابقاً، لكنه يريد تجديد هذا الأمر والتشديد فيه، انتقاماً منهم بسبب مخالفتهم له في العقيدة، وقد اعتزَّ بما لديه من صولة وبطش وسلطان.

٣ - مواجهة الشدائد والابتلاءات تكون بالاستعانة بالله، والصبر على المصائب، ولذلك أمر موسى قومه أن يستعينوا بالله ويصبروا.

٤ - النصر للإسلام، ووعد الله حق، والعاقبة للمتقين، وعلى المسلم أن يتفاءل ويستبشر ويعمل راجياً أن يحقق الله وعده ويعز جنده.

٥ - حين يمكن الله تعالى للمسلمين في الأرض، ويحقق لهم وعده، فإنه ينقلهم من الابتلاء بالشدائد والمحن إلى الابتلاء بنعمة النصر والتمكين، وعليهم أن يدركوا أن الابتلاء بالنعم أشد وأصعب من الابتلاء بالمحن والشدائد.

سوء عاقبة الكفار، وحسن عاقبة المؤمنين

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا
جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ
عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ
لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ
وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا
كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ **سورة الأعراف (١٣٠-١٣٧)**

التفسير الإجمالي للآيات

أقام موسى عليه الصلاة والسلام في قومه بمصر، يربيهم ويعلمهم مما علمه الله، واشتدت وطأة فرعون وقومه على بني إسرائيل، فأخذوا ينكلون بهم ويقتلون أبناءهم، ويسومونهم سوء العذاب، ومن سنة الله سبحانه أن يبتلي المكذبين بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فأصيب آل فرعون بالسنين المجدبة القاحلة حيث كان القحط يعم البلاد وتكثر الآفات، فتجف الزروع وتقل الثمرات وتحصل المجاعات.

وأحياناً تمر بهم أعوام يكثر فيها الخصب، وتزداد الثمرات والمحاصيل، وبدلاً من أن يتعظ هـؤلاء القوم ويتفكروا في قدرة الله وتصريفه الأمور كانـوا إذا جاءتهم النعمة والخصب وكثرة المطر وصلاح الثمرات قالوا: لنا هذه أي أُعطيناها باستحقاق، وهي مختصة بنا، وإن أصابتهم آفـة أفسـدت زرعهم، وأهلكت ثمارهم، تطيروا بموسـى وبمن معه مـن المؤمنين، وقالوا: هذا

البـلاء ما أصابنا إلا بشـؤم موسـى ومن معه، [1] ولم يدركوا أن مـا أصابهم من خير أو شر، وما نالهم من خصب أو قحط هو من عند الله سـبحانه، وأن كفرهم وتكذيب موسـى هو السـبب فيـما يصيبهم من بلاء. لقد كانوا لفرط جهلهم ينسـبون الخير والـشر والنفع والضر إلى غير الله سبحانه.

وبدلاً من أن يراجعوا أنفسهم، ويندموا على ما هم فيه من الكفر والضلال ازدادوا تحدياً لموسى عليه الصلاة والسلام، فقالوا له: مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ، أو بينة لتصرفنا بها عما نحن عليه، فـما نحـن لك بمصدقين، فقد أخبروا عن أنفسـهم أنهم لا يؤمنون بشيء ممـا يجيء به من الآيات التي هي في زعمهم من السحر.

وعنـد ذلـك نزلت بهم العقوبـة المبينة بقوله عز وجـل: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (١٣٣)

أرسل الله عليهم الطوفان، وهو المطر الشديد، أو فيضان النيل، أو الموت، وقيل: الطوفان في اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سـيل. [2] والجراد: حشرة معروفة تأكل الزروع والأشـجار وتُخربهـا، والقُمَّل: حشرات صغيرة مؤذية وناقلة للأمراض، والضفادع: جمع ضفدع وهو دابة صغيرة تكون في الماء والمستنقعات، والدم: هو السائل المعروف في الجسم، روي أنه سال النيل عليهـم دمـاً، وقيل: أصيبوا بالرُّعاف فـكان الدم ينزف من أنوفهم بكثرة. [3] وقيل: أرسـل الله عليهم الدم، فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دمًا عبيطاً. [4]

كانـت هذه الآيات تأتيهم تباعاً، فتنغص عليهم عيشـهم، وتؤذيهـم وتزعجهم، ولكنهم لم يتوبوا ولم يتضرعوا إلى ربهم، بل استـكبروا وترفعـوا عن الإيمان بالله، وكانوا قوما مجرمين لا

(١) انظر: أنوار التنزيل، وأسرار التأويل، للبيضاوي ٢/ ٣٠٨، وتفسير النسفي ١/ ٣٨٧.
(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ٣/ ٢٤، ومفاتيح الغيب، الفخر الرازي ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.
(٣) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ٣/ ٢٤.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٥.

يهتدون إلى حق، ولا يرجعون عن باطل.

وحين أصابهم العذاب بهذه الأمور التي أرسلها الله عليهم، قالوا لموسى ادع لنا ربك وأسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله، أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهده عندك، وحلفوا له الأيمان المؤكدة: لئن كشفت عنا العذاب فسوف نؤمن لك، ونطلق بني إسرائيل ليخرجوا معك حيث تريد.

ولما رأى موسى ما أصابهم، وأعطوه العهد أن يؤمنوا به ويتبعوه دعا ربه سبحانه فرفع عنهم ذلك العذاب إلى أجل، والأجل: ما جرى في علم الله أن هلاكهم يكون بالغرق. ولكنهم حين رأوا انكشاف العذاب عنهم، وتخلصهم من آلامه ومصاعبه، ظنوا أنه لن يصيبهم مرة أخرى، فعادوا ينقضون ما عقدوه على أنفسهم، ويتنصلون من العهود التي قطعوها لموسى عليه الصلاة والسلام.

وكانت العاقبة بعد ذلك أن انتقم الله منهم، فأغرقهم حين لحقوا بموسى وبني إسرائيل ليمنعوهم من الخروج، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق، وسار فيه بنو إسرائيل، وتبعهم فرعون وقومه، فلما خرج بنو إسرائيل من الضفة الأخرى كان فرعون وقومه وراءهم في البحر، فانطبق البحر عليهم فغرقوا جميعاً.

ونجّى الله بني إسرائيل، وأورثهم الأرض بعد أن كانوا مستضعفين مستذلين، وتمت كلمة ربك الحسنى، أي مضت واستمرت على التمام، والكلمة هي وعد الله الوارد في قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥-٦] وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على أملاكهم، وكان هذا الإتمام بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه.

أما قوم فرعون فقد هلكوا، ولم يبق في بلادهم إلا العجزة والنساء والأطفال، وبذلك خربت بلادهم، وزالت دولتهم، كما يبين قوله سبحانه: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ أي أهلكنا وخربنا ما كانوا يصنعونه من العمارات والقصور،

وما كانوا يعرشونه من الجنات التي يرفعون أشجارها على العمد والقضبان.[1]

ولا بد من الإشارة إلى أن استخلاف بني إسرائيل، والتمكين لهم في الأرض لم يأت بعد هلاك فرعون وقومه مباشرة، وإنما جاء بعد عشرات السنين، وأنهم لم يرثوا أرض مصر من آل فرعون، بل كان التمكين لهم في أرض الشام، وإنما ذكرت الآيات هنا استخلافهم والتمكين لهم في الأرض للمقابلة بما جرى لفرعون وقومه من إغراق وتدمير.[2]

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن الملأ من قوم فرعون، وتحريضهم على بني إسرائيل، وتهديد فرعون لبني إسرائيل بمزيد من النكال والقهر والتعذيب، وموقف موسى عليه الصلاة والسلام إزاء ذلك، حيث أمر قومه أن يستعينوا بالله ويصبروا، وطمأنهم إلى أن وعد الله بالنصر آتٍ، وفي هذه الآيات بيانُ تَحَقُّقِ وعد الله لبني إسرائيل، وإتمام النعمة عليهم، بعد أن أهلك عدوهم، وأورثهم مشارق الأرض المباركة ومغاربها.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فمن جهة تعرض نموذجاً من الكفر والاستكبار اتصف به فرعون وقومه، وكيف كان إصرارهم على الكفر ونقض العهود رغم ما رأوا من الآيات والمعجزات، وكيف كانت عاقبتهم الوخيمة وأخذهم الوبيل. ومن جهة أخرى تعرض نموذجاً للمستضعفين الذين آمنوا بالله واستعانوا به وصبروا، حتى جاءهم نصر الله، وتمت عليهم كلمته الحسنى بالنصر والتمكين. وفي هذا وذاك إشارة إلى سوء عاقبة أهل الكفر، وحسن عاقبة أهل الإيمان.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٥/ ٤٣٧، والتفسير الوسيط، لسيد طنطاوي ١/ ١٦٧٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٢٨٣-٢٨٤.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - من سنن الله تعالى أن يبتلي المكذبين بالبأساء والضراء، وأن يوالي عليهم بين النقم والنعم فإصابتهم بالنقم من أجل أن يتذكروا ويضرعوا إلى الله سبحانه، وإصابتهم بالنعم لعلهم يشكرون الله على ما أعطاهم منها.

٢ - كان قوم فرعون إذا جاءتهم الحسنة، فأخصبت بلادهم وكثرت فيها الخيرات، يقولون: لنا هذه، أي أننا نستحقها بما بذلنا من جهد، وأتقنّا من صُنع، وإذا أصابتهم آفة من قحط أو مرض أو فساد في المحاصيل يقولون: هذا كان بشؤم موسى ومن معه. وهذا يعني أنهم لم يلتفتوا إلى الإيمان بالله، ولم يروا أن له أثراً في النفع والضر، ولا شيئاً في تدبير هذا الكون وهذا بسبب استكبارهم وشدة كفرهم.

٣ - كان تحدي قوم فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام يدل على رفض شديد لكل معاني الإيمان، فقد رفضوا جميع الآيات التي يأتيهم بها، وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا به ولو جاءهم بأعظم المعجزات.

٤ - أنزلت أصناف من العذاب الشديد على قوم فرعون، حتى رغبوا إلى موسى أن يدعو الله ليكشف الضر عنهم، وأعطوه العهود أن يؤمنوا، ولكنهم سرعان ما نقضوا عهودهم بعد أن رُفع عنهم العذاب، وهذا يؤكد أن الكفار لا يحفظون عهداً، ولا يرعون ميثاقاً.

٥ - وعد الله تعالى لا يتخلف ولا يتأخر، ولكل أجل كتاب، وقد تحقق وعد الله تعالى بإهلاك فرعون وقومه، كما تحقق بنصرة موسى والمؤمنين معه، وجعل العاقبة الحسنى لهم.

٦ - النصر والتمكين لا يكون إلا بالإيمان والتوكل على الله تعالى والصبر والعمل الصالح الدائب، أما القاعدون المتواكلون فلا يمكن أن يعرفوا النصر، ولا أن ينالوا خيراً.

بنو إسرائيل وعبادة الأصنام

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ﴾ (الأعراف ١٣٨-١٤١)

التفسير الإجمالي للآيات

بعد أن عبر موسى عليه الصلاة والسلام البحر بمن معه من بني إسرائيل، ونجوا من فرعون وقومه، ورأوا كيف أهلكهم الله تعالى، سار بنو إسرائيل فمروا بقوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها ويُقربون لها القرابين، فقالوا لنبيهم عند مشاهدتهم تلك التماثيل: يا موسى اجعل لنا إلهاً، أي صنماً نعبده كما لهؤلاء القوم أصنام. فأجابهم موسى عليه الصلاة والسلام قائلاً: ﴿ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾. وإنما وصفهم بالجهل لأنهم طلبوا عبادة غير الله تعالى، رغم أنهم شاهدوا من آيات الله ما لم يشاهده غيرهم، فكانوا أولى الناس بإخلاص العبادة لله وحده، والبعد عن الشرك به.

ثم قال لهم موسى: إن هؤلاء القوم العاكفين على الأصنام، واقعون في التبار والخسار والهلاك، وهذا الدين الذي يدينون به هالك فاسد، وكل أعمالهم التي يقومون بها من عبادة للأصنام ضائعة، لا وزن لها ولا قيمة.

ثم سألهم موسى منكراً عليهم ما طلبوا فقال: ﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾؟ أي كيف أطلب لكم غيرَ الله إلهاً تعبدونه، وقد شاهدتم من آياته العظام ما شاهدتم؟ والحال أنه سبحانه فضلكم على العالمين من أهل زمانكم، بما أنعم عليكم من إهلاك عدوكم، وإخراجكم من الذل والهوان إلى العز والرفعة، فكيف تقابلون هذه

النعم بطلب عبادة غيره؟

واذكروا وقت أن نجيناكم من آل فرعون، بعد أن كانوا مالكين لرقابكم، يستعبدونكم فيما يريدونه منكم، ويستخدمونكم في الأعمال، ويذيقونكم أشد العذاب، حيث كانوا يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلك العذاب الذي كنتم فيه بلاء من ربكم عظيم.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن نزول العذاب بفرعون وقومه وإغراقهم في البحر بسبب ما كانوا فيه من الكفر والاستكبار، وبينت كيف أتم الله النعمة على بني إسرائيل، ونجاهم من عدوهم، ورفع عنهم ما كانوا فيه من الإذلال والاستعباد.

وتحدثت الآيات هنا عما جرى لبني إسرائيل بعد أن اجتازوا البحر، ورأوا ما رأوا من عجيب قدرة الله في فلق البحر لهم، وإهلاك عدوهم، ولكنهم حين مروا على قوم يعبدون الأصنام رغبوا في الشرك ومالوا إليه، وسألوا نبيهم أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء المشركين آلهة، وعرضت الآيات ردّ موسى على قومه، وتأديبه لهم.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات اتصالاً محكماً بموضوع السورة، فتعرض حلقة مما جرى لبني إسرائيل وهم - رغم إيمانهم واتباعهم لموسى عليه الصلاة والسلام - قد مالوا إلى الشرك ورغبوا فيه، ولولا وجود نبيّهم بينهم يوجههم ويربيهم لانحرفوا عن الإيمان شأنهم شأن كثير من الأمم التي سبق ذِكرُها.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كانت نجاة بني إسرائيل من فرعون وقومه آيةً عظيمةً من آيات الله سبحانه، فقد فلق لهم البحر حتى جاوزوا إلى ضفته الأخرى، وأهلك أعداءهم حين حاولوا العبور وراءهم.

٢ - للأصنام والمعبودات وقعٌ وأثرٌ كبير في حياة غالبية بني إسرائيل، ولعل اختلاطهم - لمدة

طويلة - بالمصريين الذين كانوا يعبدون الأصنام، قد رسخ في نفوسهم حُبَّ عبادتِها.

٣ - أدّب موسى عليه الصلاة والسلام قومه مبيناً لهم فساد معتقد أولئك الذين يعبدون الأصنام، ومنكراً عليهم أن يبتغوا إلهاً غير الله سبحانه، ومذكراً ببعض النعم التي أنعمها الله عليهم، وفي هذا ما فيه من تربيتهم على الإيمان والتقوى، وردّهم إلى جادّة الهداية.

٤ - على المسلم أن يقابل نعم الله تعالى بالشكر والعرفان، وأن تكون النعم حافزة له على الطاعة والتقوى، رادعة له عن الوقوع في الذنوب والمعاصي.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات:

عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حُنَين، فمررنا بسِدرة، فقلت: يا رسول الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط. وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسِدرة، ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم». (١)

(١) مسند أحمد ٤٤/ ٣٧١، رقم ٢٠٨٩٥، حديث أبي واقد ﷺ، وسنن النسائي الكبرى ٦/ ٣٤٦ رقم ١١١٨٥، باب: سورة الأعراف، وسنن الترمذي ٨/ ٩٣ رقم ٢١٠٦، باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم.

مجيء موسى للميقات

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٤٢-١٤٧)

التفسير الإجمالي للآيات

أكرم الله سبحانه نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بأن واعده، وجعل لموعده مدة ثلاثين ليلة، ثم تممها بعشر فصارت أربعين ليلة، قيل: إن الثلاثين هي شهر ذي القعدة، والعشر هي عشر ذي الحجة، وكان التكليم في يوم النحر، (١) فلما أراد موسى المسير لمناجاة ربه سبحانه طلب من أخيه هارون عليه الصلاة والسلام أن يكون خليفته في بني إسرائيل، وأوصاه أن يصلح أمْر بني إسرائيل بحسن سياستهم، والرفق بهم، وتفقد أحوالهم، والبعد عن كل ما يضر بهم ويفسد أحوالهم.

(١) انظر: معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٢٧٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٣/ ٤٦٨، وقد نقل ابن كثير هذا القول عن جمهور المفسرين، وأنه مروي عن ابن عباس، ومجاهد ومسروق وابن جريج.

ومضى موسى للميقات، حتى وصل في الوقت الموعود، وهناك كلمه الله سبحانه فأسمعه كلامه من وراء حجاب، فطلب موسى من ربه سبحانه النظر إليه، اشتياقاً إلى رؤيته لَمَّا أسمعه كلامه، وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها. فقال له الله سبحانه: لن تراني، وهذا يفيد أنه لا يراه في هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بأحاديث كثيرة، سيأتي ذكر شيء منها.

ثم أمره الله سبحانه أن ينظر إلى الجبل، ليرى ماذا سيحصل له، فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسيتحقق لموسى ما طلب من رؤية الله، فلما تجلى[1] الله سبحانه للجبل جعله دكاً، أي: مدكوكاً مدقوقا فصار تراباً، وسُوّي بالأرض، فلما رأى موسى ذلك سقط مغشياً عليه مأخوذاً من الصاعقة، التي حدثت عن انهيار الجبل، فلما أفاق من غشيته قال: سبحانك، أي أنزهك تنزيهاً عن أن أسأل شيئاً لم تأذن لي به، تُبْتُ إليك عن مثل هذا السؤال.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية، فإن الأنبياء معصومون.[2]

وبعد أن أفاق موسى من الصعقة كلمه الله سبحانه مبيناً له أنه اصطفاه واختاره على الناس بما أوحى إليه من الرسالة، وبأنه كلمه من وراء حجاب، وامتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره بأن يأخذ ما أعطاه من هذا الشرف الكريم، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل، واختصاصه بما اختصه الله به.

وقد أنزل الله عليه الألواح وفيها التوراة المتضمنة لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم

---

(١) تجلى: معناه ظهر، من قولك: جلوتُ العروس أي أبرزتها، وجلوتُ السيف: أخلصته من الصدأ، وتجلى الشيء: انكشف. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٨٨-٨٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد للقرطبي ١/ ٢١٩٣.

ودنياهم، والألواح جمع لوح، وسُمِّيَ لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني، وهي مكتوبة بأمر الله سبحانه، ومشتملة على المواعظ لمن يتعظ بها من بني إسرائيل وغيرهم، والتفصيل للأحكام التي تحتاج إلى التفصيل والبيان، وأمره أن يأخذها بقوة وجد ونشاط، فيعمل بها، ويأمر قومه أن يعملوا بها، ويأخذوا بأحسن ما فيها، أو بما أجره أكثر من غيره، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر:٥٥]، ووعد الله سبحانه أن يريهم منازل الفاسقين في النار يوم القيامة، وما يؤول إليه أمرهم من العذاب، وفي هذا توجيه لالتزام الحق، وتحذير من المخالفة والانحراف.

ثم بين الله سبحانه ما سيلاقي المتكبرون المعاندون من العذاب فقال: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي: سأمنعهم فهم آياتي، وأصرفهم عن الإيمان بها والانتفاع بها جزاء لهم على تكبرهم، كما في قوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف: ٥] أو: سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها. والآيات هي المعجزات، أو الكتب المنزلة، أو خلق السموات والأرض.. وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها، والمعنى: سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات، والذين إذا وجدوا سبيلاً من سبل الرشد[1] تركوه وتجنبوه، وإن رأوا سبيلاً من سبل الغي سلكوه واختاروه لأنفسهم، وإنما استحقوا ذلك الصرف بسبب تكذيبهم، أو كان ذلك التكبر عندهم بسبب عدم إيمانهم بالآيات، وتجنب سبيل الرشد، وسلوك سبيل الغي والضلال.

هؤلاء المكذبون بطلت أعمالهم بعد أن كانوا يرجون نفعها، والجزاء من جنس العمل، هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون من الكفر بالله، والتكذيب بآيات الله، وتنكب سبيل الحق، وسلوك سبيل الغي؟

(١) أصل الرشد في اللغة: أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو ضد الغي والخيبة. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٩١.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن نجاة بني إسرائيل من فرعون وقومه، وعبورهم إلى الضفة الأخرى، وكيف سارعوا إلى مطالبة نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام بأن يجعل لهم إلهاً يعبدونه، وكيف رد موسى عليهم.

وذكرت الآيات هنا نعماً كثيرة أنعمها الله على بني إسرائيل، فقد واعد موسى عليه الصلاة والسلام وكلمه وأنزل عليه التوراة فيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من الشرائع والأحكام وبينت الآيات أن الله تعالى اصطفى نبيه موسى بالرسالات والتكليم، وفي هذا إعلاء لشأن بني إسرائيل، وإتمام للنعمة عليهم، ولذلك أُمر موسى أن يأمر قومه بالأخذ بأحسن ما جاءهم به من الهدى والعلم، والتمسك بالحق، حتى لا يصيبهم ما يصيب الفاسقين المعرضين عن الدين والهدى.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات اتصالاً محكماً بموضوع السورة، فتعرض حلقة مما جرى لبني إسرائيل وأن الله سبحانه أعطى نبيه موسى عليه الصلاة والسلام ما أعطاه من التوراة المشتملة على الشرائع والأحكام لهداية قومه وإرشادهم إلى الحق، وإبعادهم عن كل ما يوقعهم في العذاب، ووعدهم أن يريهم دار الفاسقين، وما سيصيبهم من العذاب والنكال، وفي هذا بيان واضح وتحذير من الانحراف عن سبيل الحق وطريق الهدى.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - تشير الآيات إلى أهمية الاستخلاف، فإن موسى عليه الصلاة والسلام لم يترك قومه بلا راع يرعى شؤونهم، بل استخلف أخاه هارون، وأوصاه أن يرعى شؤونهم، ويربيهم على ما يصلحهم وينفعهم. وبمثل هذا كان النبي ﷺ يعمل، فإذا خرج من المدينة لسفر أو غزو استخلف عليها أحد أصحابه.

٢ - رؤية الله تعالى في الدنيا ممكنة، ولكن الله سبحانه قضى أن لا تكون لأحد إلا في الآخرة، فتكون للمؤمنين، والدليل على إمكانها في الدنيا أن الله سبحانه أجاب موسى بقوله: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾، واستقرار الجبل مكانه من الأمور الممكنة، وتعليق الرؤية على ممكن دليل على أن تحققها ممكن.

٣ - كان انهيار الجبل وتسويته بالأرض من الأمور الدالة على عظمة الله تعالى وقدرته، ولم يتحمل موسى عليه الصلاة والسلام رؤية الجبل وهو يندك، فخر صعقاً، فكيف يتحمل رؤية الله تعالى؟

٤ - توبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليست من اقتراف الذنوب، فالأنبياء معصومون ولكن هذه التوبة زيادة في القرب من الله تعالى، واعتراف بعظيم حقه على خلقه، كما أنها دليل على ترقي الأنبياء في الدرجات، فكلما وصلوا إلى درجة من درجات الكمال نظروا إلى الدرجة التي كانوا فيها من قبل، فاستغفروا.

٥ - الله سبحانه يصطفي من يشاء من عباده، ويفضل من يشاء من رسله وأنبيائه فيرفعهم درجات، وقد اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام بما أعطاه من الرسالة، وبتكليمه إياه من وراء حجاب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٦ - قوله تعالى: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ فيه إشارة إلى أن على المسلم أن يستمع ليأخذ أحسن القول ويتبعه، وأن يتبع أحسن الفهم، ويسعى إلى أحسن العمل. فالمسلم يسعى إلى الأحسن دائماً.

٧ - الله سبحانه يتوعد الفاسقين والمتكبرين المعرضين عن الحق، بأن يصرفهم عن آياته، ويحرمهم من هداياتها، وفي هذا إشارة إلى عظم نعمة الله على المسلم أن هداه الله إلى اتباع الحق، وأنعم عليه بسلوك سبيل الإيمان. والله سبحانه لم يظلم هؤلاء الفاسقين حين صرفهم عن الهدى، بل هم ظلموا أنفسهم بالصدّ والإعراض، فاستحقوا أن يُعاقبوا بالمنع والحرمان.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن جرير قال: كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة - يعني البدر - فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾[1] قال إسماعيل: افعلوا لا تفوتنكم.

وفي رواية عنه قال: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، يعني العصر والفجر، ثم قرأ جرير: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠][2]

عن أبي سعيد - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور».[3]

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير ١/ ٢٠٣، رقم ٥٢٩.
(٢) صحيح مسلم - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١/ ٤٣٩، رقم ٦٣٣.
(٣) صحيح البخاري ١٢/ ٨٣، رقم ٣٣٩٨.

بنو إسرائيل وعبادة العجل

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ
وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ
ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ
إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا
تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ (١٥١) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ (١٥٢) وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ
رَّحِيمٞ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ
يَرۡهَبُونَ (١٥٤) وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ
أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن
تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ (١٥٥) ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي
ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ
ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ
عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ
ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٥٧) قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ
بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥٨) وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ
وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ (١٥٩) ﴾ سورة الأعراف (١٤٨-١٥٩)

التفسير الإجمالي للآيات

بعد أن ذهب موسى عليه الصلاة والسلام للميقات اتخذ قومه من حليهم والمجوهرات التي كانت معهم عجلاً، صنعه له رجل منهم يقال له السامريُّ، وجعله على هيئة العجل، له صوت كصوت البقر، وزين لهم أن هذا هو إلههم، فاستجاب عامة بني إسرائيل لهذا التزيين، وأقبلوا على العجل يعبدونه، رغم أنهم يعرفون أنه مصنوع من الذهب والحلي، وأنه لا يتكلم ولا يملك لنفسه شيئاً، ولا يستحق أن يكون إلهاً يُعبَد، لكنهم ظلموا أنفسهم، وأقبلوا على عبادة العجل، متنكرين لنعم الله عليهم، ومعرضين عن هديه وشرعه.

ولكن هؤلاء القوم ندموا وتحيروا بعد رجوع موسى عليه الصلاة والسلام من الميقات،[1] وعرفوا أنهم كانوا في ضلال باتخاذهم العجل، وأنهم قد ابتُلوا بمعصية الله سبحانه، فأعلنوا ندمهم وتوبتهم قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله، والتضرع والابتهال في السؤال.

ورجع موسى إلى قومه مغضباً شديد الغضب، وذلك أن الله سبحانه أخبره قبل رجوعه بأن قومه قد فُتنوا بعبادة العجل، فأخذ موسى يلومهم ويوبخهم قائلاً: بئسما خلفتموني من بعدي، أي بئس العمل الذي عملتموه من بعد غيبتي عنكم، فقد استنكر عليهم ما فعلوه وذمَّهم لكونهم عبدوا العجل بعد ما شاهدوا من الآيات ما يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، أعجلتم عن انتظار أمر ربكم وميعاده الذي وعدنيه، وهو الأربعون ففعلتم ما فعلتم؟ وكان يحمل الألواح بيديه فطرحها من شدة الغضب والأسف، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، وأخذ برأس أخيه هارون عليه الصلاة والسلام، يجره إليه، لظنه أن هارون لم ينكر على السامري وبني إسرائيل عبادتهم العجل، فقال هارون معتذراً مستعطفاً: يا ابن أم

---

(١) يقال للنادم المتحير: قد سُقط في يده، والندم وإن حل في القلب فأثره يظهر في البدن، لأن النادم يعضُّ يده، ويضرب إحدى يديه على الأخرى. انظر: فتح القدير للشوكاني ٣/ ٩٤، وروح المعاني للآلوسي ٦/ ٣٦٧.

إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، ولم أُطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين؛ استضعافهم لي ومقاربتهم لقتلي، فلا تُشمت بي الأعداءَ، ولا تجعلهم يفرحون بما يصيبني على يدك،[1] والمعنى: لا تفعل بي ما يكون سبباً لشماتتهم، ولا تجعلني - بغضبك علي- في عداد القوم الظالمين الذين عبدوا العجل.

عندئذ توجه موسى إلى ربه طالباً المغفرة له ولأخيه هارون، وأن يدخلهما الله في رحمته، وهو أرحم الراحمين.

ويأتي التعقيب القرآني على القصة مبيناً أن الذين عبدوا العجل، سيصيبهم غضب من الله وذلة في الحياة الدنيا، وهذا ما حدث لهم حيث أُمروا بقتل أنفسهم، كما بينت سورة البقرة، والذلة هي التي ضربها الله عليهم وسلط عليهم من الأعداء من يسومهم سوء العذاب.

لكن الذين وقعوا في هذه المعصية ثم تابوا ورجعوا إلى الله سبحانه، وعادوا إلى الإيمان فالله سبحانه غفور رحيم، يقبل توبتهم ويعفو عنهم.

ولما سكت عن موسى الغضب، وهدأت نفسه أخذ الألواح التي كان ألقاها،[2] وهذه الألواح في نسختها هدى ورحمة للمؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه. والنسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر، ويقال للأصل الذي كان النقل منه: نُسخة، وللمنقول نُسخة أيضاً، والمعنى:

---

(١) الشماتة: سرور الإنسان بما يصيب عدوه من المصائب، ومنه قوله ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وجهد البلاء، وشماتة الأعداء" ومنه قول الشاعر:

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

انظر: روح المعاني، للآلوسي ٦/ ٣٧٢، والتحرير والتنوير، لابن عاشور ٥/ ٤٦٨.

(٢) أصل السكوت: السكون والإمساك، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك.. فترك الإغراء وسكت، ولهذا جاء التعبير القرآني: (ولما سكت عن موسى الغضب).

فيما نسخ من الألواح المتكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة هدى ورحمة، أو: وفيما كُتب له فيها هدى ورحمة، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، والهدى ما يهتدون به من الأحكام، والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة.

ثم أورد القرآن حادثة أخرى، بينت ما كان من موسى عليه الصلاة والسلام والسبعين الذين اختارهم، وهم أفضل قومه، ليسير بهم إلى الميقات الذي وَقَّته الله له بعد أن وقع من قومه ما وقع، فقد أمره الله تعالى أن يأتي إلى الطور في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه سبحانه من عبادة العجل، فلما أقبلوا مع موسى عليه الصلاة والسلام قالوا: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ [البقرة:٥٥]، وكان في طلبهم هذا ما فيه من قلة الأدب، حيث أعلنوا امتناعهم عن الإيمان لموسى إلا إذا رأوا الله تعالى جهرةً، فأرسل الله عليهم الرجفة، وهي الزلزلة الشديدة، فزُلزلوا حتى ماتوا، فلما رأى موسى ما أصابهم قال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي والمعنى: لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت، اعترافاً منه ﷺ بالذنب، وتلهفاً على ما فرط من قومه. والاستفهام في قوله ﴿ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ ﴾ للجحد والإنكار، والمقصود منه الاستعطاف والتضرع، فكأنه قال: رب لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، فما الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت، وتمتحن بها من أردت، ثم رجع إلى الاستعطاف والدعاء فقال: أنت ولينا المتولي لأمورنا، فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، وأنت خير الغافرين للذنوب.

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة بتوفيقنا للأعمال الصالحة، أو تفضل علينا بإفاضة النعم في هذه الدنيا من العافية وسعة الرزق، واكتب لنا في الآخرة الجنة، إنا تبنا إليك، ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني إسرائيل، ومعنى الْهَوْد: التوبة.

ثم أخبر الله سبحانه أنه القادر على كل شيء، فهو يصيب بعذابه من يشاء، ورحمته وسعت كل شيء، وسيكتب هذه الرحمة الواسعة للذين يتقون ربهم، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم ويؤمنون بآيات الله سبحانه.

ثم بين سبحانه صفات هؤلاء الذين يشملهم برحمته، بأنهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي[١] محمداً عليه الصلاة والسلام، الذي يجدونه - يعني اليهود والنصارى - يجدون نعته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وهما مرجعهم في الدين، وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل، فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وَصَفَ هذا النبيَّ الذي يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف، أي: بكل ما تعرفه الشريعة ولا تنكره من مكارم الأخلاق وينهاهم عن المنكر، أي: ما تنكره الشريعة ولا تعرفه، وهو ما كان من مساوئ الأخلاق، ويحل لهم الطيبات من الرزق، ويحرم عليهم الخبائث كالحشرات والخنازير، ويضع عنهم إصرهم والإصر: الثقل، والمعنى: يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة التي كانوا قد كُلفوا بها. فمن آمن بهذا النبي محمد ﷺ، واتبع ما جاء به من الشرائع، وعظمه ووقره ونصره على من يعاديه، وآمن بالقرآن الذي أنزل عليه، فهو من الفائزين بالخير والفلاح.

لقد تضمنت هذه الآيات بشارة بسيدنا محمد ﷺ، كما أشارت إلى الإنجيل قبل أن ينزل الإنجيل بمئات السنين.

وبعد أن ذكرت الآيات بعض أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل، أمره الله سبحانه أن يقول: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾، وهذا القول يقتضي عموم رسالته إلى الناس جميعاً، لا كما كان غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام فإنهم كانوا يُبعثون إلى قومهم خاصة، لكن رسول الله ﷺ مرسل إلى الناس جميعاً، فالله الذي له ملك السماوات والأرض، لا ينازعه في ذلك أحد، المتفرد بالألوهية، وبالإحياء والإماتة هو الذي أرسله إليكم، يدعوكم إلى الإيمان بالله ورسوله النبي الأمي، وفي هذا دعوة إلى الإيمان بالله وحده، والإيمان بنبيه محمد عندما يُبعث، وإشارة إلى بعض صفاته.

والمراد بالكلمات ما أنزل الله عليه وعلى الأنبياء من قبله، أو القرآن.

---

(١) الأمي إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب وهم العرب، أو نسبة إلى الأم، والمعنى: أنه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وقيل: نسبة إلى أم القرى وهي مكة المكرمة.

ولما قص الله علينا ما وقع من السامري وأصحابه، وما حصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين، أخبر سبحانه أن من قوم موسى أمةً مخالفةً لأولئك الذين تقدم ذكرهم، ووصفهم بقوله: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾، فهم يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق، وبالحق يعدلون بين الناس في الحكم، وهؤلاء هم الذين ثبتوا على الحق من أهل الكتاب، ومنهم من أدركوا النبي محمداً ﷺ وآمنوا به واتبعوه.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن الميقات، وتكليم الله لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام، وما آتاه من الكرامة، وتحدثت الآيات هنا عما فعله بنو إسرائيل في غياب موسى من عبادة العجل وموقف موسى لما رجع إليهم، وبينت ندمهم وتوبتهم، كما أشارت إلى أن من التزموا بعهد الإيمان، والذين عملوا السيئات ثم تابوا فإن الله سيرحمهم ويتوب عليهم، ولكن عليهم أن يتبعوا النبي الأمي الذي بشرت به التوراة والإنجيل، إذا هم أدركوا زمانه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل الآيات اتصالاً محكماً وثيقاً بموضوع السورة، حيث تبين أن بني إسرائيل في هذه المرحلة انحرفوا عن الدين القويم، فعبدوا العجل، لكنهم تابوا وعادوا إلى الإيمان، وهذا يذكّر بأن الإنسان عرضة للزلل والخطأ، بسبب وسوسة الشيطان وهوى النفوس، ولكن فرقٌ بين من يستمر على خطئه وعصيانه، وبين من يتوب ويرجع إلى الله نادماً منيباً.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كان تأثر بني إسرائيل بأهل مصر كبيراً، فعبادة البقر معروفة ومألوفة عند قدماء المصريين، حيث عبدوا العجل (أبيس)، وهؤلاء اليهود قلدوهم في عبادة العجل الذي صنعه لهم السامري.

٢ - عكف بنو إسرائيل على عبادة العجل، ورفضوا الاستجابة لهارون عليه الصلاة والسلام ولكن لما رجع إليهم موسى عليه الصلاة والسلام ندموا على ما وقعوا فيه من الضلال،

وأعلنوا توبتهم وندمهم.

٣ - كان موقف موسى عليه الصلاة والسلام دالاً على غضبه مما فعل قومه، فهو يغضب لله لا لنفسه، ومن أمارات غضبه أنه ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وأخذ يوبخ قومه ويلومهم على ما فعلوا. ويؤخذ من هذا أن المسلم يجب أن يكون غضبه لله تعالى، لا لنفسه.

٤ - تدل الآيات على سعة رحمة الله تعالى، وأنه يقبل توبة التائبين، ويعفو عن المذنبين إذا ندموا وأنابوا، وفي هذا فتح لباب التوبة أمام كل عاصٍ ومذنب.

٥ - كان موقف السبعين الذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام - وهم خيار بني إسرائيل - موقفاً يدل على ضعف الإيمان في نفوسهم، حيث طلبوا رؤية الله تعالى، وجعلوا ذلك شرطاً لإيمانهم.

٦ - بُشر موسى عليه الصلاة والسلام ببعثة سيدنا محمد ﷺ، وأعلمه الله أنه سينزل الإنجيل أيضاً، وسيكون النبي الخاتم مكتوباً في التوراة والإنجيل بأهم صفاته، وفي مقدمتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات، وتحريم الخبائث، والتيسير على الناس في التشريعات والعبادات.

٧ - كما أشارت الآيات إلى أن النبي الخاتم سينزل عليه نور من ربه، وقد وُصف القرآن في مواضع أُخَر بأنه نور.

٨ - أُمر النبي محمد ﷺ أن يُعلن للناس أنه رسول الله إليهم جميعاً، ليتبين الفرق بينه وبين سائر الأنبياء السابقين، فقد كانوا يُبعثون إلى أقوامهم خاصة، وبُعث النبي ﷺ إلى الناس كافّة.

٩ - لم يكن بنو إسرائيل جميعاً سواءً في الضلال والانحراف، بل كانت منهم طائفة التزمت بالحق، فهم يهدون به وبه يعدلون، وهؤلاء يستحقون أن يُثني الله عليهم، ويخلد ذكرهم في كتابه.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل خلق مائة رحمة؛ فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، فبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة». (١)

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يُعطَهن أحد من الأنبياء قبلي؛ نُصرت بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلَتْ لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلَّت لي الغنائم، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّةً، وبُعثت إلى الناس كافةً، وأُعطيتُ الشفاعةَ». (٢)

عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبتَ. وقال أبو بكر: صدقتَ». (٣)

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفا». (٤)

---

(١) مسند أحمد ٤٨/ ٢٢٩، رقم ٢٢٦٠٥، وصحيح ابن حبان ٢٥/ ٣٣٦، رقم ٦٢٥٣، عن أبي هريرة، ومسند أبي يعلى ١١/ ٢٥٨، رقم ٦٣٧٢، عن أبي هريرة أيضاً.

(٢) صحيح البخاري، دار ابن كثير ١/ ١٦٨، رقم ٤٢٧.

(٣) صحيح البخاري ١٥/ ٢٣٤، رقم ٤٦٤٠، باب: قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً.

(٤) صحيح البخاري - دار ابن كثير ٢/ ٧٤٧، رقم ٢٠١٨.

من مخالفات بني إسرائيل وانحرافاتهم

سورة الأعراف (١٦٠-١٧١)

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ
اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ
وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ
سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي
كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا
وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ
تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا
نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ
عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
(١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ
وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ
وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)﴾

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه قطَّعَ بني إسرائيل، أي صيرهم قطعاً متفرقة، وميَّزَ بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطاً،[1] كل سبط معروف على انفراده، ولكل سبط نقيب كما في قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢]، فصاروا اثنتي عشرة أمةً من اثني عشر ولداً، وقد أصابهم العطش في التيه، فجاءوا إلى موسى يستسقونه، فسأل اللهَ تعالى أن يسقيهم فأوحى الله إليه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فضرب الحجرَ، فانبجست، أي انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط، لكل سبط عين يشربون منها، قد علم كل سبط منهم العين المخصصة ليشرب منها، فكانت هذه من النعم العظيمة التي أكرمهم الله بها، كما أنعم عليهم بنعمة تظليلهم بالغمام، يسير بسيرهم، ويقيم بإقامتهم، يقيهم من حر الشمس في تلك الأرض الخلاء المكشوفة، وأنزل عليهم طعاماً من أطيب الطعام وأجوده، هو المن والسلوى، فالمن نبات أو ثمر طيب الطعم، والسلوى طائر لحمه طيب،[2] وأذن لهم الله أن يأكلوا من هذه الطيبات المستلذات التي رزقهم، لكنهم لم يحفظوا هذه النعمة، بل ظلموا أنفسهم بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم.

ثم تنتقل الآيات لتذكر حادثة أخرى وقعت لبني إسرائيل، بعد أن انقضت مدة التيه حيثُ قيل لهم اسكنوا هذه القرية، أي بيت المقدس أو أريحاء، وكلوا من المأكولات الموجودة فيها حيث شئتم، وفي أي مكان شئتم منها، ولكن قولوا – وأنتم تدخلونها –: يا ربنا حُطَّ عنا خطايانا، وادخلوا باب القرية المشار إليها حال كونكم سجداً، أُمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة

---

(١) والأسباط جمع سبط وهو ولد الولد، وأراد بالأسباط القبائل ولهذا أنث العدد، كما في قول الشاعر:

وإن قريشا كلها عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر

أراد بالبطن القبيلة، وسماهم أمماً لأن كل سبط كان جماعةً كثيرة العدد. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٠٦، وروح المعاني، للآلوسي ٦/ ٣٩٩.

(٢) وفي معنى المن والسلوى أقوال عديدة للمفسرين، انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ١/ ٦٨، وروح المعاني للآلوسي ١/ ٣٢٥.

وبين الدخول ساجدين، فإنكم إن فعلتم ذلك سيغفر الله لكم خطيئاتكم وذنوبكم، وسيزيد المحسنين منكم على المغفرة لخطاياهم، بما يُنعم به عليهم من النعم.

لكن هؤلاء القوم بدلوا القول، وغيروا الكلام، ورفضوا الاستجابة للأمر، فاستحقوا أن يُرسِل الله عليهم عذاباً من السماء يهلكهم ويقضي عليهم. وقد أصاب العذابُ المخالفين وأهلكهم.

ولم تكن تلك المخالفة فريدة في تاريخهم، بل كانت حياتهم حافلة بمثل تلك المخالفات والانحرافات، ومن ذلك ما حصل من أصحاب القرية التي على ساحل البحر، [١] فاسألهم عن هذه الحادثة التي عصوا فيها أمر الله سبحانه، وقصة ذلك أن أهل تلك القرية كانوا يصيدون الحيتان في البحر، لكنهم تجاوزوا حدود الله، بالصيد يوم السبت[٢] الذي نُهوا عن الصيد فيه، فقد كانت الحيتان تأتي يوم السبت شُرَّعاً ظاهرة على الماء، قريبة من الشاطئ، بحيث يسهل صيدها، وفي بقية الأيام تبتعد هذه الحيتان، وتذهب في عرض البحر، وكان هذا ابتلاءً من الله لهم.

ولما رأى اليهود ذلك أخذوا يفكرون في طريقة تمكنهم من أخذ الحيتان وصيدها، فحفروا حياضاً، ووضعوا حواجز، فكانت الحيتان تدخل في تلك الحياض يوم السبت، فيغلقونها بالحواجز، وتبقى الحيتان حبيسة، فيأخذونها يوم الأحد. [٣]

وأمام هذا العدوان على حرمة السبت، والاحتيال على شرع الله تعالى، قامت جماعة من صالحي أهل القرية بوعظ هؤلاء العصاة، وتخويفهم من عذاب الله تعالى، وأخذوا يرددون عليهم الوعظ والتذكير، لكن جماعة أخرى من أهل القرية قالوا لمن كانوا يجتهدون في وعظ المتعدين في السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة وإقلاعهم عن المعصية: لم تعظون قوماً الله

(١) اختُلف في هذه القرية، فقيل: أيلة، وقيل: طبرية، وقيل: مدين، وقيل غير ذلك. انظر: زاد المسير ٣/ ٤٦، وتفسير البيضاوي ٢/ ٣٣١.

(٢) السبت: هو اليوم المعروف، وأصله السكون، يقال: سبت إذا سكن، وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٠٧.

(٣) انظر: تفسير الخازن ٣/ ١١٥.

مهلكهم، ومُنزلٌ بهم العقوبة، أو معذبهم عذابا شـديداً بسـبب اعتدائهم في السبت، وتجاوزهم الحدود؟ فردَّ عليهم الواعظون: إننا نفعل ذلك معذرة إلى ربكم، ولعلهم يتعظون ويكفون عما هم فيه من العصيان والاعتداء.

قـال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق؛ فرقة عصت وصادت الحيتان يوم السبت، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التـي لم تنـه ولم تعص للفرقـة الناهية: لم تعظون قومـاً؟ يعني: الفرقة العاصيـة. الله مهلكهم أو معذبهـم، قالـوا ذلك على غلبة الظن لما جرت بـه عادة الله من إهلاك العصـاة، أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك، فقالت الفرقة الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله ولعلهم يتقون. [1]

لكـن العصـاة من أهـل القرية أعرضـوا، وتركـوا ما ذكرهم بـه الصالحـون الناهون عن المنكـر، وتمـادوا فيما هم فيه من العصيـان والعدوان، وعندئذ قضى الله سـبحانه بإنزال العذاب عليهـم، فنجّـى الفرقة التـي نهت عن المنكر، وحـذَّرت من عاقبته، وأخذ الذيـن ظلموا، وهم العصاة المعتدون في السبت، والساكتون عنهم الذين لم ينهوهم عن المنكر بعذاب شديد، بسبب فسقهم وظلمهم، وكان هذا العذاب أن مسخهم الله تعالى، فصاروا قردةً، وقضى عليهم بالذلة والصغار والطرد من رحمته.

وقد تأذن الله[2] سبحانه أن يبعث على بني إسرائيل، في كل مدةٍ إلى يوم القيامة من يذيقهم سـوء العذاب، فهو سـبحانه سريع العقاب، قـادر أن يعاجل به في الدنيا كـما وقع لهؤلاء، وهو سبحانه غفور رحيم، يغفر لمن تاب، ويرحم من أناب إليه.

ثم أخبر الله سـبحانه أنـه قضى بتفريق بني إسرائيل في جوانب الأرض، وتشـتيت أمرهم فصاروا أمماً منهم الصالحون الذين اتبعوا الحق ولم يحرفوا ولم يغيروا، ومن هؤلاء من آمن بمحمد

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٠٨.

(٢) تأذَّنَ تفعَّلَ، من الإيذان وهو الإعلام، قال أبو علي الفارسي: آذنَ بالمد: أعلم، وأذَّنَ بالتشديد: نادى. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١١٢.

ﷺ ودخل في الإسلام، ومنهم أناس دون ذلك، والمراد بهؤلاء من لم يستقيموا، بل استمروا في المخالفة والعصيان، وابتلاهم الله بالخير والشر، والسراء والضراء، رجاء أن يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي. فخلف من بعدهم خلْف، هم أولادهم وذرياتهم،[1] ورثوا التوراة من أسلافهم يقرؤونها ولا يعملون بها، بل يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا[2] لشدة حرصهم وقوة نهمتهم، يتعجلون مصالحها بالرشا والسحت في مقابل تحريفهم لكلمات الله، وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة، وكتمانهم لما يكتمونه منها، ويأخذون عرض الشيء الدنيء الساقط، ويقولون سيُغفر لنا، فهم يعللون أنفسهم بالمغفرة مع تماديهم في الضلالة، وعدم رجوعهم إلى الحق، وإذا أتاهم عرض مثل العرض الذي كانوا يأخذونه أخذوه غير مبالين بالعقوبة، ولا خائفين من التبعة، مع أنه قد أُخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق، لكنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب، والحال أنهم قد درسوا ما في الكتاب وعلموه فكان التَّركُ منهم عن علم لا عن جهل، وذلك أشد ذنباً وأعظم جرماً، وقيل: معنى درسوا ما فيه: مَحْوُهُ بترك العمل به. والدار الآخرة خير من ذلك العرض الذي أخذوه وآثروه عليها.

وفي الوقت الذي كان عامة بني إسرائيل لا يتمسكون بالتوراة، ولا يعملون بما فيها، مع كونهم قد درسوها وعرفوها، فقد وُجدت طائفة منهم يتمسكون بالتوراة ويعملون بما فيها، ويرجعون إليها في أمر دينهم، ويقيمون الصلاة، وهؤلاء هم المصلحون الذين لا يضيع أجرهم عند الله.

---

(١) قيل: الخَلْفُ بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجمع سواء، والخَلَفُ بفتح اللام: البَدَلُ، ولداً كان أو غيرَه، وقيل: الْخَلَفُ بالفتح: الصالح، وبالسكون: الفاسد. قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجربِ

انظر: مختار الصحاح ١/ ٩٠.

(٢) (يأخذون عرض هذا الأدنى) الأدنى مأخوذ من الدنو وهو القُرب، أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى وهو الدنيا، وقيل: إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١١٣.

ثــم تتحــدث الآيات عــن صورة جديدة مــن مخالفات بنــي إسرائيل، فقد رفــع الله الجبل فوقهم حتى صار كأنه لارتفاعه ســحابة تُظلهم، والظلة اسم لكل ما أظل، وظنوا أنه واقع بهم ساقط عليهم، فكان رفع الجبل فوقهــم لتخويفهم من العصيان والانحراف، وقيل لهم: خذوا الكتاب بقوة وجدٍّ وعزيمة، واذكروا ما فيه من الأحكام التي شرعها الله لكم، ولا تنسوه رجاء أن تتقوا ما نُهيتم عنه، وتعملوا بما أُمرتم به.

عن ابن عباس قال: إنّي لأعلم خَلْقِ الله لأيِّ شيء سجدت اليهود على حَرْفِ وُجوههم: لما رفع الجبل فوقهم سَجَدُوا، وجعلوا ينظرون إلى الجبل مخافةَ أن يقع عليهم. قال: فكانت سجدةً رضيها الله، فاتخذوها سُنَّة.[1]

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام إلى الميقات، وما فعله قومه من عبادة العجل، ورجوعه إليهم، وما جرى بينه وبينهم، وتوبتهم وندمهم، كما بينت أن الله سبحانه يقبل توبة التائبين، وذكرت من صفاتهم أنهم يتبعون الرسول النبي الأمي.. وجاءت الآيات هنا تذكر بعض الجوانب من تاريخ بني إسرائيل وانحرافاتهم ومخالفاتهم فذكرت جحودهم نعم الله، وتبديلهم القول الذي قيل لهم، وما أصابهم من العذاب بسبب ذلك، ثم ذكرت اعتداءهم في السبت، والعقوبة التي نالتهم، وبينت ما جرى لهم من تقطيع في الأرض، وأن الله قضى أن يبعث عليهم من يذيقهم سوء العذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهي تتحدث عن حلقة واسعة من تاريخ بني إسرائيل، الذين سجلوا انحرافات خطيرة عن طريق الإيمان، فعبدوا العجل مرةً، وبدلوا القول الذي قيل لهم مرةً أخرى، واعتدوا في السبت، واحتالوا على تعاليم الشريعة،

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٣/ ٢١٨، رقم ١٥٣٣٣.

وكل ذلك بسبب اتباع هوى النفوس ووساوس الشيطان.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بنعم كثيرة، فقابلوها بالجحود والكفران، فاستحقوا الحرمان منها، والعقوبة على ما بدر منهم.

٢ -كان كثير من هذه النعم من المعجزات الخارقة، كانفجار العيون من الحجر، وإنزال المنّ والسلوى، وتظليل الغمام لهم، وكان هذا أدعى لأن يؤمنوا ويلتزموا، ولكنهم ازدادوا جحوداً وظلماً.

٣ - الاعتداء على حدود الله، وانتهاك حرمات الدين سبب في حلول العقاب ونزول العذاب، والتحايل على الشرع - كما فعل الذين اعتدوا في السبت - ظلم وتجاوز لحدود الله.

٤ - للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية عظيمة في حفظ المجتمعات من غضب الله تعالى والوقاية من الدمار والهلاك، فأهل القرية التي كانت حاضرة البحر لو أطاعوا الذين كانوا ينهونهم عن المنكر لما أصابهم العذاب.

٥ - يستفاد من قصة أصحاب السبت، وغيرها مما جرى لبني إسرائيل، تعريفهم بأن ذلك مما أُخبر به رسول الله ﷺ، وأن ذلك لا يكون إلا بالوحي له من الله سبحانه، فيكون دليلا على صدقه.

٦ - كتب الله على بني إسرائيل الذلة والمسكنة، وتأذن بأن يبعث عليهم في كل مدة من يذيقهم العذاب، وذلك بسبب مخالفاتهم وظلمهم وانحرافهم، وفي هذا تحذير للمسلمين من الانحراف والعصيان.

٧ - كثيراً ما يعتمد الناس على الوعد بالمغفرة، ويقعون في الحرام وهم يمنُّون أنفسهم بأن الله سيغفر لهم، وهم بهذا يتجرؤون على أكل الحرام وأخذ السحت، وفي هذا هدم للمجتمعات، وتعريضها للعذاب الشديد. كما أن فيه نقضاً للعهد والميثاق، وتضييعاً للشرع.

٨ - ورغم كل المخالفات التي ارتكبها بنو إسرائيل، فإن طائفة منهم كانوا حريصين على التمسك بكتاب الله، والأخذ بأحكامه، وهؤلاء هم المصلحون الذين يؤتيهم الله أجرهم ويجزيهم أحسن الجزاء.

من الأحاديث والآثار الواردة في تفسير الآيات

عن سعيد بن زيد: عن النبي ﷺ قال: «الكمأة من المنِّ، وماؤها شفاءُ العين». (١)

عن أبي هريرة ﷺ: عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها». (٢)

ومعنى لم يخنز اللحم: لم ينتن، وقيل: سبب ذلك أنهم نُهوا عن ادخار السلوى فادخروه، فأنتن. (٣)

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا إليه قد غشيهم فسقطوا سجداً على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم فقالوا: ما سجدة أحب إلى الله تعالى من سجدة كشف بها العذاب عنكم، فهم يسجدون لذلك على شق فذلك قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾. (٤)

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ﴾. فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة». (٥)

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٠٠، رقم ٤٣٦٣، باب: المن والسلوى.

(٢) صحيح البخاري ١١/ ٤٨٨، رقم ٣٣٣٠، باب خلق آدم عليه الصلاة والسلام.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/ ٣٦٧، دار المعرفة - بيروت.

(٤) المستدرك على الصحيحين - دار الكتب العلمية ٢/ ٣٥٢، رقم ٣٢٥٢. وقال الحاكم: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٥) صحيح البخاري ٤/ ١٧٠١، رقم ٤٣٦٥، باب: وقولوا حطة.

عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) فقال: أقوام يُقبلون على الدنيا فيأكلونها، ويتبعون رخص القرآن، ويقولون سيُغفر لنا، ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه». (١)

أخذ الميثاق على بني آدم

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٧٢-١٧٨)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه أخرج ذرية بني آدم من أصلاب آبائهم نسلاً بعد نسل وأشهدهم على أنفسهم بأن دلَّهم بخلقه على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ وقيل: المعنى أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه، والراجح أن المراد ببني آدم هنا آدم نفسه، والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم

(١) الدر المنثور في التأويل بالمأثور، لجلال الدين السيوطي ٤/ ٣٥٦، وفتح القدير ٣/ ١١٤.

الذر، فقد ثبت ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وموقوفاً على جماعة من الصحابة، كما سيأتي.

وحين أخرج الله هذه الذرية أشهدهم على أنفسهم، أي أشهد كل واحد منهم قائلاً لهم: ألست بربكم؟ فقالوا: بلى شهدنا على أنفسنا بأنك ربنا. وكان هذا الإشهاد لئلا تقولوا أيها الناس يوم القيامة: إنا كنا غافلين عن أن الله ربُّنا وحده لا شريك له. ولئلا تعتذروا بالغفلة، أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم فتقولوا: أشرك آباؤنا، وجئنا فوجدناهم على الشرك، وكنا ذرية من بعدهم لا نهتدي إلى الحق ولا نعرف الصواب، أفتهلكنا بما فعل المبطلون من آبائنا، ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر، واقتفائنا آثار سلفنا؟ لقد بين الله سبحانه في هذه الآية الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم، وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة، ويعتلُّوا بهذه العلة الباطلة، ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة.

ومثل ذلك التفصيل يفصل الله الآيات، ولعلهم يرجعون إلى الحق، ويتركون ما هم عليه من الباطل.

وبعد بيان خبر هذا العهد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم، جاءت قصة هذا الرجل الذي أوتي العلم، وأُخذ عليه العهد والميثاق كما أُخذ على الذين أوتوا العلم أن يبلغه ويقوم بحقه، ولكنه نقض العهد، وخان الأمانة.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

وإيراد هذه القصة منه سبحانه، وتذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم في التوراة، فهذا الرجل انسلخ من الآيات التي أوتيها، فلم يبق له بها اتصال، فأتبعه الشيطان عند انسلاخه عن الآيات، أي لحقه فأدركه وصار قريناً له، فكان من الغاوين المتمكنين في الغواية

وهم الكفار، ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من الآيات، ولكن شاء الله غير ذلك، لأن هذا الرجل ظلم نفسه بانسلاخه من الآيات، وتركه العمل بها، حيث أخلد إلى الأرض، ومال إلى الدنيا ورغب فيها وآثرها على الآخرة، واتبع ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله فصار بذلك منحطاً إلى أسفل رتبة، مشابهاً للكلب الذي هو من أخس الحيوانات في الدناءة مماثلاً له في أقبح أوصافه، وهو أنه يلهث إذا حمل عليه الإنسان زاجراً له، أو تركه،[1] والمعنى: أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع أحواله سواء أَوَعَظه الواعظ وذكَّره المذكر، أم لا؟ هذه هي حال هؤلاء القوم التي بلغت الغاية في السوء، فساء مثلاً مثلهم، فقد كذبوا بآيات الله، وظلموا أنفسهم بهذا التكذيب.

ثم تبين الآيات أن الهدى والضلال بمشيئة الله سبحانه، من يهد الله فهو المهتدي لما أمر به وشرعه لعباده، ومن يضلل اللهُ فأولئك هم الخاسرون الواقعون في أعظم الخسران. مَن هَداه فلا مضل له ومن أضله فلا هادي له، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل، ونقضهم العهود والمواثيق، وانحرافهم عن الدين مرة بعد مرة، وتحدثت الآيات هنا عن أخذ الميثاق على بني آدم جميعاً، وإشهادهم على أنفسهم أن الله ربهم وخالقهم، حتى لا يعبدوا غيره، ولا يشركوا به شيئاً، كما ذكرت قصة ذلك العالم الذي أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ومال إلى الدنيا ومتعها فاستحق أن يكون من الغاوين، وأن يشبّه بالكلب، ذمّاً له وتقبيحاً لفعله.

---

(١) قال القتيبي: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال المرض وحال الصحة، وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته ضل وإن تركته ضل، فهو كالكلب؛ إن تركته لهث، وإن طردته لهث، واللهث تنفس بسرعة، وتحرك أعضاء الفم معه، وامتداد اللسان، وخلقة الكلب أنه يلهث على كل حال. انظر: حياة الحيوان الكبرى، للدميري ٢/ ١٦٤.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً محكماً وثيقاً، فعلى مدار التاريخ البشري كان الشيطان يسعى لإضلال الناس وصرفهم عن الهدى، وإبعادهم عن العهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم، بأن يؤمنوا ويستقيموا، وقد جاءت الآيات هنا مبيِّنةً العهدَ الذي أخذه الله على بني آدم، لئلا يقولوا إنا كنا عن هذا غافلين، وكانت قصة العالم الذي ترك الآيات والعلم، واتبع هواه، نموذجاً حياً للانحراف عن الهدى بعد معرفته، والزيغ عن الحق بعد وضوحه وظهوره، وقد بينت الآيات أن مثله كمثل الكلب، تنفيراً للناس من اتباعه والتشبه به.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - أخذ الله العهد على بني آدم أن يعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما بينت الآيات هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس: ٦٠-٦٢]، وهذا العهد هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

٢ - كان أخذ الميثاق على بني آدم لإقامة الحجة عليهم، وقطع العذر عنهم، فليس لأحد أن يقول: إنا كنا عن هذا غافلين، ولا أن يقول: إنما أشرك آباؤنا، وجئنا فوجدناهم على الشرك فاتبعناهم. ورغم هذا فإن الله سبحانه لم يترك البشر بغير مرشد يرشدهم، بل أرسل إليهم الرسل، وأنزل معهم الكتب والشرائع لهداية الناس ودلالتهم على الخير.

٣ - إن ضلال عامة الناس أمر صعب شديد لما فيه من نقض لعهد الله وميثاقه، وانحراف عن الفطرة التي فطر الناس عليها، لكن ضلال العلماء الذين أوتوا العلم، وعرفوا الهدى والحق أصعب، ومسؤوليتهم أعظم، وعذابهم على ذلك أشد.

٤ - في قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ إشارة إلى أن هذا العالم الذي انحرف ومال إلى الدنيا صار إماماً للشيطان في الضلال والفساد، فكأنه لم يتبع الشيطان، بل الشيطان تبعه

وسار وراءه.

٥ - من أوتي العلم وعمل به، وأدى حقه، رفعه الله درجات، وجعله من أئمة الهدى، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا ﴾، فالعلم سبيل إلى رفع الدرجات، وعلو المقامات.

٦ - من طلب العلم لينال به الدنيا، ويحصل به متعها وشهواتها، كان مثله كمثل الكلب، فهو يلهث في جميع أحواله، سواء أزجرته أم كففت عنه، فعلى أهل العلم أن يتقوا الله فيما آتاهم من العلم.

٧ - القصة القرآنية لها أهداف ومقاصد، منها: دعوة الناس إلى التفكر والاعتبار بما جرى للسابقين: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سُئل عن هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريةً، فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون».[١]

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه ثم كلمهم قبلاً، فقال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا

(١) موطأ مالك، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، ٥/ ١٣٢٢، رقم ٣٣٣٧، وسنن أبي داود ١٢/ ٣١٢، رقم ٤٠٨١.

من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون». (١)

عن ابن عباس، قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال: خلق الله آدم فأخذ ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله ورزقه ومصيبته، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم. (٢)

أهل النار أضل من الأنعام

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ
بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ
أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ
﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾
الأعراف (١٧٩- ١٨٦)

---

(١) قال الهيثمي: أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢، رقم ٢٤٥٥) قال الهيثمى في مجمع الزوائد (٧/ ٢٥): رجاله رجال الصحيح. وأخرجه النسائى في السنن الكبرى (٦/ ٣٤٧، رقم ١١١٩١) وقال: كلثوم هذا ليس بالقوى، وحديثه ليس بالمحفوظ. والحاكم في المستدرك ١/ ٨٠، رقم ٧٥ وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٢٧.

وَنَعمان، بالفتح: واد في طريق الطائف يخرج إلى عرفات، وقِبلاً: عياناً.

(٢) الإبانة الكبرى، لابن بطة ٣/ ٣٧٣، رقم ١٣٣٥.

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه خلق لجهنم، أي للتعذيب بها كثيراً من الجن والإنس، جعلهم سبحانه للنار بعدله وبعمل أهلها يعملون، وقد علم ما هم عاملون قبل كونهم، ثم وصف هؤلاء بأنهم لهم قلوب لا يفقهون بها كما يفقه غيرهم، فهذه القلوب لما كانت لا تفقه ما فيه نفع أصحابها، وُصفت بأنها لا تفقه مطلقاً، وهكذا معنى ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ فإن الذي انتفى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكر والاعتبار وإن كانت مبصرة في غير ذلك، والذي انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة، والشرائع التي اشتملت عليها الكتب المنزلة، وما جاءت به رسل الله، وإن كانوا يسمعون غير ذلك. فالمتصفون بهذه الأوصاف هم كالأنعام في عدم انتفاعهم بهذه المشاعر بل هم أضل؛ لأن الأنعام تدرك ما ينفعها ويضرها، فتنتفع بما ينفع وتجتنب ما يضر، وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر، فهم الغافلون لما هم عليه من عدم التمييز والإدراك والفهم.

ثم بَيَّنَ الله سبحانه أن له الأسماء الحسنى،(١) وأمرنا أن ندعوَهُ بها، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ فهذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، فأسماؤه أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى، وأشرف مدلول، وقد أمرنا الله سبحانه أن ندعوه بها، فإنه إذا دُعِيَ بأسمائه الحسنى كان ذلك من أسباب الإجابة، وقد ثبت في الصحيح: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة»(٢) كما أمر الله سبحانه أن نترك الذين يلحدون في أسمائه،(٣) ونُعرض عنهم، والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون إما بتغييرها كما فعله المشركون

---

(١) الحسنى تأنيث الأحسن، أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٢٤.

(٢) صحيح البخاري، دار ابن كثير، ٢/ ٩٨١، رقم ٢٥٨٥.

(٣) الإلحاد: الميل وترك القصد، يقال: لحد الرجل في الدين وألحد إذا حاد عنه، ومالَ. انظر: مختار الصحاح ١/ ٢٨١.

فإنهم أخذوا اسم اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض. وفي الآية وعيد لهؤلاء الذين يلحدون بنزول العقوبة، وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم.

ثم بين الله سبحانه أن من جملة خلقه أمةً يهدون الناس بما عرفوه من الحق، وبالحق يعدلون بينهم، فهؤلاء هم أهل الحق الذين يُرجى لهم الفلاح والفوز.

أما المكذبون بآيات الله فإن الله ليس بغافل عنهم، بل سيستدرجهم[1] بأن يدنيهم قليلاً قَليلاً إلى ما يهلكهم، وذلك بإدرار النعم عليهم، وإنسائهم شكرها فينهمكون في الغواية، ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك، وظنهم أنه لم يحصل لهم هذا النعيم والرزق الكثير إلا بما لهم عند الله من المنزلة والمكانة.

وهكذا يملي لهم الله؛ فيطيل لهم المدة ويمهلهم ويؤخر عنهم العقوبة، وهم يتمادون في ضلالهم وطغيانهم حتى ينزل بهم العذاب وهم غافلون.

وبعد هذا تتحدث الآيات عن المشركين منكرة عليهم أنهم لم يتفكروا في شأن رسول الله ﷺ، وفيما جاء به، ولو تفكروا لعلموا أن ليس به شيء مما يدَّعونه من الجنون، وهذا ردٌّ لقولهم الذي حكاه القرآن عنهم حيث قالوا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر:٦]، كما تنكر عليهم إعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرة الله، وتفرده بالإلهية

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾. والمعنى: أن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا

---

(١) الاستدراج هو الأخذ بالتدريج، منزلة بعد منزلة، وقيل: هو من الدرجة، فالاستدراج أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه وأدرج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم مات بعضهم في أثر بعض. انظر: مختار الصحاح ١/ ٩٨.

بالتفكر، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك إلى الإيمان به، بل هم سادرون في ضلالتهم، خائضون في غوايتهم لا يُعملون فكراً، ولا يمعنون نظراً، فهم لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ولا فيما خلق الله من شيء من الأشياء، ولو نظروا لعلموا أن في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين وموعظة للمتفكرين، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض أو من دقائقها من سائر مخلوقاته.

وكما غفل هؤلاء عن التفكر والنظر في آيات الله الدالة على عظيم قدرته، غفلوا عن أجلهم الذي عسى أن يكون قد اقترب. فإذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به وينتفعون بالتفكر فيه؟

إن غفلتهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليست إلا لكونهم ممن أضله الله، ومن يضلله فلا هادي له، وليس له من يهديه إلى الحق، وينزعه عن الضلالة.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن العهد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم، بأن يؤمنوا به ويوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وأنه لا عُذر لمن أشرك بالله ولا حُجة، وجاءت الآيات هنا مبينة أن كثيراً من الجن والإنس نقضوا هذا العهد، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وهؤلاء هم الذين ذرأهم الله لجهنم، فقد أعطاهم من الإمكانات والقدرات التي تمكنهم من معرفة الحق والاهتداء إليه، لكنهم عطلوا هذه القدرات، ولم يستخدموها في الخير، فكانوا كالأنعام بل هم أضل.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فرغم العهد المأخوذ على بني آدم أن يعبدوا الله وحده، ورغم التحذير لهم من عبادة الشيطان واتباعه، فإن كثيراً من البشر استجابوا لنداء الشيطان ووسوسته، فانحرفوا عن الصراط، وعبدوا غير الله، وألحدوا في أسماء الله سبحانه.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - خلق الله كثيراً من الجن والإنس للنار، وهو سبحانه لم يظلمهم بذلك، لأنه لم يجبرهم على اختيار طريق الضلال، ولكنه علم أنهم سيختارون طريق الضلال والكفر، حتى يدخلوا نار جهنم.

٢ - الكافر أشد ضلالاً من الأنعام، فالأنعام تسعى فيما يجلب لها النفع ويدفع عنها الضر، أما هؤلاء فلا يفكرون إلا في الدنيا، ولا يعملون إلا لها، وغفلوا عن الآخرة التي فيها الحياة الباقية فخسروا أنفسهم.

٣ - الله سبحانه له الأسماء الحسنى، وعلى المسلم أن يدعو الله تعالى بهذه الأسماء، إن كان يريد أن يستجيب الله له.

٤ - المشركون يلحدون في أسماء الله الحسنى، إما بتغييرها كما فعلوا بأسماء أصنامهم فإنهم اشتقوها من أسماء الله تعالى، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها وينكروا بعضها.

٥ - الله سبحانه يملي للكافرين ويستدرجهم، فيمدهم بالنعم، ويدرُّ لهم الأرزاق والأموال، فيغترُّون بذلك، حتى ينزل بهم العذاب.

٦ - إن رسول الله ﷺ نذير مبين، وهو مبرأٌ مما اتهموه به من الجنون، ولو أن هؤلاء المشركين تفكروا لعرفوا ذلك، ولكنهم لا يتفكرون.

٧ - إن هؤلاء مهما طالت بهم الأيام، وامتد بهم العمر، فإن أجلهم قريب، وإن لم يؤمنوا بهذا الحديث، فبأي حديث بعده يؤمنون؟

٨ - الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فكل من طلب الهداية وسعى لها بصدق هداه الله، وكل من عمي وتغافل عن الهدى ورفض الحق أضله الله.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً؛ مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة». [١]

وفي رواية عنه قال: «لله تسعة وتسعون اسماً، مائة إلا واحداً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». [٢]

وزاد الترمذي في سننه بعد قوله يحب الوتر: «هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور». [٣]

---

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير، ٢/ ٩٨١، رقم ٢٥٨٥، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا.

(٢) صحيح البخاري، ٢٠/ ٢٨، رقم ٥٩٣١، باب: لله مائة اسم غير واحد.

(٣) سنن الترمذي، ١١/ ٤١٢، رقم ٣٤٢٩، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد.

السؤال عن الساعة

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٨٧-١٨٨)

التفسير الإجمالي للآيات

كان المشركون يسألون الرسول ﷺ عن الساعة،[١] متى تأتي؟ وهو سؤال يقصدون منه الاستعجال والتحدي، فأمر الله سبحانه رسولَه ﷺ بأن يجيبهم بقوله: إنما علمها عند ربي، فلا يعلم وقوعها، ولا يجليها[٢] ولا يظهرها لوقتها ولا يكشف عنها إلا الله سبحانه، وفي استئثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة، وتدبير بليغ كسائر الأشياء التي أخفاها الله واستأثر بعلمها. ولما خفي علم الساعة على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة، لأن كل ما خفي علمه ثقيل على القلوب، وقيل: المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمها، لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضب، وقد قضى الله سبحانه أن لا تأتي الساعة إلا فجأة على غفلة.

إن هؤلاء المشركين يسألونك يا محمد عن الساعة، كأنك حفي[٣] عالم بها مستقصٍ للسؤال

---

(١) الساعة القيامة، وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، وأيان ظرف زمان مبني على الفتح وهو بمعنى متى، و(مُرساها) بضم الميم أي وقت إرسائها وإثباتها، يقال: رسا الجبل إذا ثبت، والمعنى متى يرسيها الله: أي يثبتها ويوقعها. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٣١.

(٢) التجلية: إظهار الشيء وإيضاحه.

(٣) الحفي: العالم بالشيء، والحفي: المستقصي في السؤال، ومنه قول الأعشى:

فإن تسألي عني فيا رب سائل ... حفي عن الأعشى به حيث أصعدا

يقال: أحفى في المسئلة وفي الطلب فهو محف، وحفيّ على التكثير مثل مخصب وخصيب، والمعنى يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها أو كأنك مستقصٍ للسؤال عنها، ومستكثر منه. انظر: تفسير القرطبي ٧/ ٣٣٦، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٣١.

عنها، فقل لهم: إنما علمها عند ربي، ولكن أكثر الناس لا يعلمون باستئثار الله بهذا وعدم علم خلقه به، إذ لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل.

كما أُمر الرسول ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين يسألونه عن الساعة: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فمن كان لا يقدر على جلب نفع له أو دفع ضر عنه إلا ما شاء الله سبحانه من النفع له والدفع عنه، فأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه.

ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وجلبته إلى نفسي، وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني، ولكني عبد لا أدري ما عند ربي ولا ما قضاه فيَّ وقدره لي، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه؟ وما أنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها قوماً، وأبشر بها آخرين، ولست أعلم بغيب الله سبحانه.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، رغم أنه أعطاهم الإمكانات والقدرات التي تمكنهم من معرفة الحق والاهتداء إليه، لكنهم عطلوا هذه القدرات، ولم يستخدموها في الخير، فكانوا كالأنعام بل هم أضل، حيث ألحدوا في أسماء الله الحسنى، وغفلوا عن الآخرة، واستُدرِجوا بالنعم، فازداد كفرهم وتكذيبهم واتهامهم للرسول ﷺ بالجنون، وجاءت هذه الآيات لتبين أن كفر هؤلاء تمادى بهم فأنكروا الساعة، وأخذوا يسألون الرسول ﷺ عن ميقات مجيئها، ساخرين مستهزئين، وكان الرد عليهم بأن علم الساعة عند الله سبحانه، وأن الرسول لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهؤلاء المشركون لم يتوقفوا في ضلالهم وشركهم عند الإلحاد في أسماء الله الحسنى واتهام الرسول ﷺ بالجنون، بل أنكروا الساعة أيضاً وأخذوا يسألون عن موعدها في تهكم وسخرية، وهذا إمعان في الضلال والشرك، يبين استعداد

كثير من الناس لاتباع الشيطان والاستجابة لنزغه، والانحراف عن الحق والهدى.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كان سؤال المشركين عن الساعة بقصد التهكم والسخرية والتحدي، فهم لا يؤمنون بالساعة، ولا يصدقون بمجيئها، ولكن لشدة عنادهم كانوا يقولون: إن كنت صادقاً في أن الساعة حق، فلتأتنا بها.

٢ - الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يدري متى تقوم الساعة، بل يفوض علم ذلك إلى الله سبحانه.

٣ - علم الساعة من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وهو الذي يُظهرها ويأتي بها في وقتها ولا يتم ذلك إلا بغتة، والناس في غفلة وانشغال عنها.

٤ - لو كان أي إنسان عالماً بالغيب لاستكثر من الخير، وتوقى من أن يصيبه شرٌّ أو مكروه، ولكن حكمة الله تعالى أن لا يُطلع الناس على الغيب، وإن رسول الله ﷺ - على الرغم من منزلته الرفيعة عند الله تعالى - لا يعلم الغيب.

الناس مخلوقون من نفس واحدة

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا
حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ
(١٨٩) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا
لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى
ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ (١٩٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ
بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟
شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) ﴾ سورة الأعراف (١٨٩ - ١٩٥)

التفسير الإجمالي للآيات

تتحدث هذه الآيات عن حقيقة خلق الناس، فقد خلقهم الله سبحانه من نفس واحدة فهم جميعاً بنو آدم عليه الصلاة والسلام، حيث خلق الله آدمَ، وجعل منه زوجه حواء،[1] كما جاء في مطلع هذه السورة، ليسكن إليها، أي لأجل أن يأنس إليها ويطمئن بها، فإن الجنس بجنسه أسكَن، وإليه آنَس. وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار.

ثم بيَّن الله سبحانه حالةً أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما فقال: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ أي تغشى الرجل المرأة، وهذا عام في كل رجل وامرأة،[2] والتغشي كناية عن الوقاع أي فلما

(١) هو الذي خلقكم من نفس آدم، وجعل من هذه النفس زوجها وهي حواء، خلقها من ضلع من أضلاعه، وقيل: (وجعل منها) أي: من جنسها كما في قوله تعالى: (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) [الشورى: ١١]، والأول أولى.

(٢) وردت بعض الروايات الضعيفة جداً والموضوعة تنسب الشرك إلى آدم وحواء، وتفسر الآية الكريمة على أن الضمائر الواردة في الآية وهي: (تغشاها، حملت، فمرت، أثقلت، دعوا، آتاهما، جعلا، آتاهما) يعود بعضها على آدم وبعضها على حواء، وبعضها عليهما معاً، وهذا غير صحيح، فقد بدأت الآية

جامعها حملت حملاً خفيفاً، علقت به بعد الجماع، ووصفه بالخفة لأنه يكون في بداية الأمر خفيفاً ثم يتدرج في النمو والثقل، فمرت به، أي استمرت بذلك الحمل تقوم وتقعد وتمضي في حوائجها لا تجد به ثقلاً، فلما أثقلت وصارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها دعوا الله ربهما أي دعا الرجل والمرأة ربهما ومالك أمرهما قائلين: لئن آتيتنا ولداً صالحاً لنكونن من الشاكرين لك على هذه النعمة. فلما آتاهما ما طلباه من الولد الصالح، وأجاب دعاءهما جعلا له شركاء فيما آتاهما، فأشركا بالله، وعبدا غيره، كما وقع من كثير من الناس الذين أشركوا بالله. فيا عجبا لهؤلاء الناس كيف يجعلون لله شركاء لا يخلقون شيئاً، ولا يقدرون على نفع لهم، ولا دفع عنهم، وهم يُخلقون، أي وهؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون. وهم أيضاً لا يستطيعون أن ينصروا من اتخذوهم شركاء، إن طلبوا منهم النصر، ولا أنفسهم ينصرون إن اعتدى عليهم معتدٍ. ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز.

ثم توجه الخطاب إلى المشركين، على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ أي وإن تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد، بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم ويرشدوكم لا يتبعوكم ولا يجيبوكم إلى ذلك، فدعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء، لأنهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يسمعون ولا يجيبون.

إن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهةً هم عبادٌ لله كما أنتم عباد له، مع أنكم أكمل منهم، لأنكم

بالحديث عن خلق الناس من نفس واحدة هي نفس آدم عليه الصلاة والسلام، وأن زوجه حواء خلقت منه، ثم انتقل الحديث إلى الأزواج؛ الذكر والأنثى من الناس، وأن كثيراً منهم قد أشركوا بالله تعالى، ولذلك جاء الضمير بالجمع في قوله تعالى: (فتعالى الله عما يشركون) وهذا يعني: الأزواج الذين أشركوا. ثم إن هذه الروايات تقدح في عصمة الأنبياء، لأن آدم نبي معصوم، ولا يجوز بحال أن يُنسب إليه الشرك بالله تعالى.

ولمعرفة بعض هذه الروايات ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٣/ ٣٠٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٥٢٧، وقد رد ابن كثير هذه الروايات، مبيناً أنها من الإسرائيليات، ووجه الآية بأن المقصود بذلك جماعة من المشركين، وليس المقصود آدم وحواء.

أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك ولكنها مثلكم في كونها مملوكةً لله مسخرة لأمره، وفي هذا تقريع لهم وتوبيخ، فادعوا هؤلاء الشركاء فإن كانوا كما تزعمون فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين فيما تدَّعونه لهم من قدرتهم على النفع والضر.

وتمضي الآيات في الاستفهام للتقريع والسخرية من هؤلاء الشركاء، وممن اتخذوهم وعبدوهم، أي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم أرجل يمشون بها في نفع أنفسهم فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم، وليس لهم أيد يبطشون بها[1] كما تبطشون، وليس لهم أعين يبصرون بها كما تبصرون وليس لهم آذان يسمعون بها كما تسمعون، فكيف تدعون من هم بهذا العجز؟

ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وما فيها من النقص والعجز، أمر الله رسولَه ﷺ أن يقول لهم: ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضر، ثم كيدون أنتم وهم جميعاً بما شئتم من وجوه الكيد، فلا تمهلوني، ولا تؤخروا إنزال الضرر بي من جهتها والكيد المكر، وفي هذا من التحدي لهم، والتعجيز لأصنامهم ما فيه.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن إنكار المشركين للساعة، واستهزائهم بمجيئها، وبينت الآيات هنا جوانب جديدة من كفرهم بالله تعالى، فبدلاً من أن يشكروا الله على نعمة النسل والولد جعلوا ذلك سبيلاً إلى الشرك بالله، وتوجهوا إلى الأصنام يعبدونها من دونه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهؤلاء المشركون أمعنوا في الشرك بالله، وكُفر نعمه، وبالغوا في اتباع الشيطان وسلوك سبيله، ناسين أن الشيطان عدوهم الذي

(١) البطش: الأخذ بقوة وصَولة.

أخرج أبويهم من الجنة.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - من مظاهر قدرة الله تعالى أنه خلق جميع البشر من نفس واحدة، وأنه جعل تكاثرهم عن طريق التناسل والزواج.

٢ - ومن حكمته سبحانه أنه جعل الزواج سكناً وهدوء نفس، واستقرار عيش، وأن حياة الإنسان تبدأ بذلك الحمل الصغير الخفيف في بطن أمه، ثم يثقل هذا الحمل ويكبر، فإذا بلغ أجله خرج إلى الحياة طفلاً.

٣ - في الوقت الذي يثقل فيه الحمل، ويقترب أوان الولادة يكون الأبوان في حال من الترقب والرجاء أن يكون المولود صالحاً سوياً، لا عيب فيه ولا خلل، ويكون في يقينهما أن ذلك بيد الله سبحانه، لكن كثيراً من الأزواج حينما يرون المولود سوياً ليس به عيب، ينسون نعمة الخالق، ويغفلون عن شكره، ويشركون به مخلوقات لا تخلق شيئاً، ولا تملك نفعاً ولا ضراً.

٤ - إن هؤلاء الشركاء الذين يُعبدون من دون الله، عباد لله، وليسوا آلهةً، وهم لا يستجيبون لمن يدعوهم، ولا يملكون لأنفسهم شيئاً فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم.

أولياء الرحمن

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ
يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ
مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ
ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا
لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر
رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥
إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ ۩ ٢٠٦﴾ **سورة الأعراف (١٩٦-٢٠٦)**

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه ولي المسلم، فكيف يخاف المسلم هذه الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً؟ وله وليٌّ يلجأ إليه،[1] ويستنصره وهو الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، فيحفظهم وينصرهم ويكف عنهم شرَّ أعدائهم. وفي المقابل فإن الذين تعبدونهم من دون الله أيها المشركون عاجزون عن نصرة أوليائهم، بل عن نصرة أنفسهم، وما داموا كذلك فكيف تدعونهم وتعبدونهم من دون الله سبحانه؟

وهؤلاء الأولياء الذين تدعونهم من دون الله لا يسمعون إذا دُعوا إلى الهدى، ولا يبصرون، وكذلك المشركون إن تدعوهم أيها المسلمون إلى الهدى لا يسمعوا، فقد عطلوا سمعهم وسائر حواسهم.

(١) ولي الشيء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته، ويدفع عنه الضرر.

ولما عَـدَّدَ الله سبحانه ما عدَّدَهُ من أحوال المشركين، وبيَّن سفه رأيهم وضلال سعيهم أمر رسوله ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاق الناس، يقال: أخذت حقي عفواً أي سهلاً، وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ كما ثبت في الصحيح أنه كان يقول: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»، (١) والمراد بالعفو هنا ضد الجهد، وأمره أيضاً أن يأمر بالمعروف، (٢) وهو كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس، كما أمره أن يعرض عن الجاهلين، والمعنى: إذا أقمت الحجة في أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا فأعرض عنهم ولا تُمارهم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة. وهذه الأوامر والتوجيهات لرسول الله ﷺ، ولكل مسلم من بعده.

وحين يصل المسلم إلى مثل هذه الدرجة من الخصال الحميدة الطيبة، قد يوسوس له الشيطان، ويثير في نفسه أنه خيرٌ وأفضل من هؤلاء الناس الذين يتعامل معهم، فيأمرهم وينهاهم ويعفو عنهم، ولذلك جاء الأمر بالاستعاذة بالله تعالى، والالتجاء إليه من نزغ الشيطان. (٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ ﴾ أي إن شأن الذين يتقون الله وحالهم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعاذة به، والالتجاء إليه عندما يمسهم طائف من الشيطان (٤) وإن كان يسيراً، فإذا تذكروا أبصروا، وعرفوا الحق فالتزموه، وعرفوا الباطل فاجتنبوه.

﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ ﴾ معنى هذه الآية أن إخوان الشياطين

---

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير ١/ ٣٨، رقم ٦٩، باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.

(٢) العرف والمعروف والعارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس، قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيهُ لا يذهب العرف بين الله والناسِ

انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٣٩.

(٣) النزغ: الوسوسة، قال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون من الآدمي، ومن الشيطان أدنى وسوسة، وأصل النزغ: الفساد، يقال: نزغ بيننا أي أفسد. انظر: معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٣١٧.

(٤) سميت الوسوسة طيفاً وطائفاً لأنها لَمَّة من الشيطان تشبه لَمَّة الخيال. انظر: مفاتيح الغيب، للرازي ٧/ ٣٤٣، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٤٠.

وهـم الفجـار من ضُـلَّال الإنس يمدونهم في الغـي، ويكونون مدداً لهم، وسـميت الفُجارُ من الإنـس إخـوانَ الشـياطين لأنهم يقبلون منهم ويقتـدون بهم، ثم لا يقـصرون، ولا ينتهون عن إمداد الكفار في الغي، وتزيين الشر لهم ليقعوا فيه.

وقد بلغ بهم هذا الإمداد أن كان الكفار يقولون لرسول الله ﷺ إذا تراخى الوحي، وتأخر نزول الآيات: لولا اجتبيتها؟[1] أي: هلّا أتيت بآية من عندك؟ فأمره الله بأن يجيبهم بقوله: إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي، ولست ممن يأتي بالآيات من قِبَلِ نفسه كما تزعمون، فما أوحاه الله إليَّ وأنزله عليَّ أبلغته إليكم، وهذا القرآن المنزل عليَّ هو بصائر من ربكم[2] يتبصر بها من قَبِلَها، كما أنه هدى يهتدي به المؤمنون، ورحمة لهم يُرحمون بها.

وإذا ثبت أن هذا القرآن وحيٌ من عند الله سبحانه، فحقه أنه إذا قُرئ أن تستمعوا له وتنصتوا. لتنتفعوا به وتتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح. وقد قيل: إن هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قـراءة الإمـام، ولا يخفى أن اللفظ أوسـع من هـذا، والعام لا يُقْصَرُ على سـببه، فيكون الاستماع والإنصـات عنـد قـراءة القرآن في كل حالـة، وعلى أي صفة، واجباً على السـامع. فبالاستماع إلى القرآن والإنصات إلى تلاوته بتدبر وخشوع تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه.

ثم أمر الله سـبحانه رسـولَه أن يذكره في نفسه، فإن الإخفاء أقربُ إلى الإخلاص، وأدعى للقبـول. والذكـر يحصـل بتلاوة القرآن واستماعه، كـما يحصل بالتهليـل والتسـبيح والتحميد والتكبير والاستغفار والدعاء، ونحو ذلك من الأذكار التي جاءت بها الشريعة؛ فالمطلوب من

---

(١) اجتبى الشيء بمعنى: جباه لنفسه، أي: جمعه، أي هلا اجتمعتها افتعالا لها من عند نفسك؟ أو: هلّا اختلقتها؟ يقال: اجتبى الكلام: انتحله واختلقه واخترعه، إذا جاء به من عند نفسه. انظر: البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ٦/ ٢٤، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٤٠.

(٢) البصائر: الحجج والبراهين، جمع بصيرة، وقال الزجاج البصائر: الطرق. فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٤١.

المسلم أن يكون من الذاكرين، المكثرين للذكر، وأن لا يكون من الغافلين.

وللذكر شروط وآدابٌ منها: أن يكون هذا الذكر مع التضرع والتذلل لله سبحانه، وأن يصاحبه الخوف من عذاب الله وغضبه، وأن يكون الذاكر متوسطاً بين الجهر والسر، فلا يذكر ربه بالصياح ورفع الصوت، ولا يخفض صوته إلى الحد الذي لا يُسمع نفسه، بل يتوسط بين هذا وذاك. وإذا كان الذكر مطلوباً في سائر الأوقات، فإن أفضله ما يكون بالغدوِّ: وهو أول النهار، والآصال: وهي أواخر النهار، وكل هذا مع الوعي والانتباه وحضور القلب.

وحتى يطمئن المسلم وتسكن نفسه، يبين له الله سبحانه أنه إذا أكثر من العبادة والإقبال على طاعة الله وذكره، فإن الملائكة الكرام الأطهار الذين لا يعصون الله، وليس لهم ذنوب، لا يستكبرون عن عبادة الله، ولا يملّون من تسبيحه وذكره، وهم يسجدون له، ولا يسجدون لأحد سواه. والمقصود أن المسلم أولى بذلك، لأنه غير معصوم عن الذنوب.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن المشركين، واتخاذهم الأولياء والشركاء من دون الله، وأن هؤلاء الشركاء لا يملكون نفعاً ولا ضراً، ولا يقدرون على شيء، وتحدثت الآيات هنا عن المسلم الذي يتولاه الله، ويحفظه وينصره ويعينه، كما دعت إلى التزام المسلم بجملة الآداب والأخلاق والفضائل ليكون ولياً لله، وردَّت بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول مصدر هذا القرآن، حيث اتهموا النبي ﷺ بالإتيان بهذا القرآن من عند نفسه، وبينت بعض آداب الذكر واستماع القرآن.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فالناس فريقان؛ فريق اتخذوا أولياء وشركاء من دون الله، وهؤلاء هم الكفرة الذين خسروا أنفسهم، وفريق أطاعوا الله تعالى، واتبع هديه، وهؤلاء هم المؤمنون الفائزون. وهذا متفق مع ما جاء في أول السورة من وعيد

الشيطان بإضلال أكثر الناس وإغوائهم، ومتفق أيضاً مع قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - الله سبحانه ولي المؤمنين، وولي الصالحين، والمسلم يستشعر هذه الولاية، ويعمل لاستدامتها وزيادتها، فيلتزم أمر الله تعالى، ولا يخشى المشركين وشركاءهم.

٢ - الشركاء الذين يُعبدون من دون الله مخلوقات هزيلة لا تملك أن تنصر نفسها، فكيف تنصر الذين يعبدونها؟

٣ - المشركون عطلوا سمعهم وأبصارهم، وتمادوا في ضلالهم وشركهم، واستحوذ عليهم الشيطان بنزغه ووساوسه.

٤ - المسلم مدعوٌّ إلى التزام أحسن الأخلاق، وأطيب الخلال والشمائل، فهو يعفو ويصفح، ويأمر بالمعروف، ويدعو إلى الخير، ويُعرض عن الجاهلين، فلا يجادلهم ولا يضيع وقته في المراء معهم.

٥ - مهما بلغ المسلم من الترقي في الفضائل، فلا بد أن يعرض له شيء من نزغ الشيطان ووسوسته، لكنه يسارع إلى التذكر وحضور القلب مع الله، والاستعاذة به لطرد وساوس الشيطان، والنجاة من كيده.

٦ - الشياطين لا يكفون عن إمداد إخوانهم وأوليائهم من الكفرة والمشركين، فهم يمدونهم في الغي، ويزينون لهم الشر، ويوسوسون لهم ليكيدوا للمسلمين، ويصدوهم عن دينهم.

٧ - وقد بلغ هذا الإمداد في الغي أن يتهم المشركون رسول الله ﷺ بأنه يأتي بالآيات من عند نفسه. وكان رد القرآن عليهم واضحاً، فالقرآن وحيٌ من الله تعالى، وهو بصائر وهدى ورحمة، وإنما ينتفع به المؤمنون.

٨ - على المسلمين أن يعظِّموا هذا القرآن، ويستمعوا له بخشوع وتدبر وحضور قلب، ليُرحموا ويهتدوا. وعلى المسلم أن يكون ذاكراً لله تعالى في كل أوقاته، لا سيما أول النهار وآخره، وأن يكون هذا الذكر مصحوباً بآدابه وشروطه، ليكون مقبولاً عند الله سبحانه.

٩ - ليس المسلم وحيداً في توجهه إلى الله تعالى، وإقباله على عبادته، بل إن الملائكة الكرام لا يستكبرون عن عبادة الله، ويسبحونه وله يسجدون، وفي هذا ما يطمئن القلوب، ويريح النفوس، ويبعث على الاستزادة من الذكر، والإقبال على الطاعة والعبادة.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عُمر، وكان القراءُ أصحاب مجالسة عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجهٌ عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الْحُرُّ لعيينةَ، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هِي يا ابن الخطاب! فوالله ما تُعطينا الجزلَ، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم به، فقال له الحر: يا أميرَ المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾. وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله. (١)

عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف). قال: «ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس» وعنه قال: «أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس». (٢)

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا». (٣)

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير ٤/ ١٧٠٢، رقم ٤٣٦٦، باب: سورة الأعراف.

(٢) صحيح البخاري، دار ابن كثير، ٤/ ١٧٠٢، رقم ٤٣٦٧، باب: سورة الأعراف.

(٣) سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ٢/ ١٤٢، رقم ٩٢٢.